الفصلُ الثاني

آلاتُ القراءة عند الشّيْخِ

إذا ما كانَ المنهاجُ هو المُنطلق والضابط حركة القلبِ في الفهم وحركة اللسانِ في الإفهامِ ، فَإنّ هذا المنهجِ تتوقفُ فاعليتُه وإثمارُه على الآلات التي يتخذها القارئُ مطيته إلى تفعيل منهجه ليقُوم برسالته ، فيبلغ غايته من القراءة . هذه الآلات (الأدوات) جدٌّ كثيرة لكن يُمكن أنْ أجعلَها في ضربَيْن كُليينِ :

الأول : ما هو فطري وهبيّ ويَتمثل في أمر كليّ هو (الطبع) أو القريحة أو الذَّوق ، وفي حياطةِ هذا الأمرِ الكليِّ أنواعٌ عديدةٌ .

والآخَر : ما هُو عِلميٌّ كسبيٌّ هو العلم أوالثقافة أو الدُّربة وفي حياطة هذا الأمرِ الكليّ ـ أيضًا ـ أنواعٌ عديدةٌ .

وما استهل به الوحي نزولاً فيه ما يُفْهم منه أنّ التلقّي له سبيلان : سبيل وهبي ، وسبيلُ كسبيّ .

يقُول الله سُبْحانَه وَبِحمدِه : **بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾** (العلق:١–٥)

obeikandl.com

في قوله : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:٤،٥) لفتٌ إلى ضربين من التعليم : الأول : كسبيّ (علم بالقلمِ) والآخر : وهبيّ ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:٥) [١]

وفي تقديم الكسبيّ (علّم بالقلم) ما يُفهم منه أنّ من أخلصَ واجتهد في هذا واستثمر ما اكتسبه كان من مثوبته أن يعلمه الله تعالى ما يعلم ، وفي هذا من الإغراء للعبد بأن يؤُمّ إلى اكتساب العلم ، ولا يشغله عن ذلك شاغلٌ ، فإذا أدّى ما عليْه كان له من الفضل من ربّه ما لا سبيل إلى اكتسابه إلا منه سُبْحانَه وَبِحمدِه ، ومنْ إذا اجتمعا فيه كان لاجتماعهما فضلُ تميزٍ فالكسبي وحده لا يفضَي بصاحبِه إلى أن يكونَ له فِي صِناعةِ العلم وخدمتِه قدم ، فللوهبي في ذلك أثرٌ بالغٌ .

وقد تبيّن لي أن الأدواتِ الفطريّة الوهبيّة في قراءة الشيخِ بيان النبوة لها حضُور ظاهرٌ في قراءته ، بل ولها كبيرُ أثرٍ في فاعلية أدواته العلمية واقتدارها .

وهو فيما أحسبُ ذو حظ وفيرٍ منها جعل له مزية باهرة مُدهشة على أَقرانه من أهلِ العلم ببلاغةِ العربيةِ ، وببيان الوحي قرآنا وسنة ، لذا كانت عندي أولى بتقديم القول فيها على ما هو كسبي[٢] .

* * *

أولا : الأداوتُ الفطرية الوَهبية للقراءة عند الشيخ .

لدَى كلِّ عالمٍ وطالبِ علمٍ في تلقيه أدواتٌ بعضُها هو فطرةٌ وعطية من الله سُبْحانَه وَبِحمدِه بغيرها لايتأتَى له أن يثبت في طريقِ طلب العلمِ لأنه مدرج

---

(١) ينظر : شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ البخاري (م . س) ص٧٨

(٢) في ما مضَى من الأوراق حملت إليك فيضًا من مقالات الشّيخ فيها مجلَى لما سأذكره من أدواته الوهبية والكسبية وفيما سيأتيك إن شاءَ الله تعالى في الفصل الثالث المعقود لأبعاد المنهج ، ممَّا يحملني إلى أن لا أبسط الحمل من مقالاته هنا على النَّحو الذي كان قبلُ والذي يكون بعدُ .

وعر ، ومرتقى صَعبٌ لا يصبر عليْه إلا من يكون له ما يذوقُ به ثمره ، فمن حرم هذه الفطرة ، ليس من سبيلٍ إلى أن يُجعل طالبًا للعلمِ ، لذلك لم يكن كل أهلاً لأن يكونَ طالبَ علمٍ ليخدمه . أما طلب العلم باستخدامه في الحياة ، فذلك متيسر لكثير ؛ لأنَّـه لا يتطلبُ ما يستوجِبُه طلبُ العلم لِخدمةِ العلمِ .

ولـذا يغلبُ على الصنـف الأول : طالب العلـم ليستخـدمـه فـي حياته أنّـه لا يعدو أن يكون حاملا هذا العلم . أمَّا الصّنف الثاني فهوالّذي يرتقِي من ذلك الطّور إلى أن يطلب العلم ليستثمره في حياته وحياة قومه ثُم لِيخدمَ العلم وأهلَه : « يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلين »[1] .

في هذا الحديث بيان للأصول الكلية لرسالة العالم :

« يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ .

وَيَنْفُونَ عَنْهُ انْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ

وَيَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ».

هذه الثلاثة هي مفسِدات العلمِ : وهو صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ قد أسند كل مفسدةٍ إلى سدنتها :

أسند التأويل إلى الجاهلين ، وأسند الانتحال للمبطلين ، وأسند التحريف للغالين ، ممّا يفهم منه أنها أفعالٌ متغايرة ، وأن صناعها متغايرون منهجًا وأدوات ، وإن يكن المقصد واحدًا . .

والعملُ على انتفاء هذه الثلاثة عن العلم حمـلٌ ثقيـل لا يقـوم لـه إلا عـالمٌ عدلٌ ، والعدل في شأن العالم ، لا ينحصرُ في صدق قَولِه والثقـة في مـا ينقـلُ

---

(١) رواه الطبراني في معجم الشاميين مرفوعا والبيهقيّ في السنن الكبرى في « بَابُ : الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ يُسْأَلُ عَنِ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ ... (حديث رقم : ٢٠٩١١) وصَححه الألباني في تعليقه على « مشكاة المصابيح » نشر : المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط(٣) عام : ١٩٨٥م ـ حديث ٢٤٨ [٥١] ٨٢/١)

ويحملُ ، بل هو أمرٌ قائم في فعلِه الظاهر والباطن . يعني انتفاء العِوج في جميع أمرِه ، فلا يرى منه إلا ما كان على جادّة الصراط المستقيم .

وإذا ما وزن كثيرٌ ممّن ينسبون إلى العلم في ما حولك رأيت غير قليلٍ منهم لا يتحققُ فيه ذلك الشَّرط . وإن كان ممن إذا تكلم لا يكاد يسْكت أو يُسْكتْ لكثرةِ مخزونه ، أو لحلاوة ملفوظِه في آذان الدَّهماء ، إلا أنَّ أهل البصيرة لا يرون في ما يقولُه نورَ الحكمة ، وجلال العلماء ووقارهم[1] .

* * *

أحسِب أن شيخَنا كان له النصيبُ الأوفر من الأدوات الوهبية التي سقيت بغيثِ الكسبِ فكان الذي جاد به على أهل العلم وطلبته من أسفار لا يغفل عمَّا فيها من دقائق العلم ناصح نفسَه وقومه ودينه .

والمواهب الرّبانية من أدوات تلقي العلم وخدمته جدّ عديدة نذكر بعضًا منها هي الأبرز حضوراً في كتاب « شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم » .

• الأداة الأولى : الذوق :

لهذه الأداة أسماءٌ عدة كلٌّ منها ينظرُ إلى جانب من جوانبها : من أسمائها الذّوق والطَّبع والقريحة .

أمّا الطبعٌ وهو الأقدم والأكثرُ حضوراً في مدونة قراءة البيان البليغ عند أجدادنا فإنّه ينظرُ فيه إلى أصلِ حضورِه في الذّاتِ القارئة (المتلقية) وأنّه كسبيّ وهبيّ فُطرَ عليه كلّ سَوِيّ مِن أبناء آدم عليْهِ السّلام ، وكما أَنَّ النّاس لا يحرمُ سويٌّ منهم مِن شيْءٍ منه فضلا من ربّك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هم فيه جدٌّ متفاوتين حضوراً وفاعلية ، وكذلك دلّت تسميتُه طبعًا على أنّه لا يمكن لم حرمه ـ إن

---

(١) هذه الأصول الثلاثة لرسالة العالم يُحتاجُ إلى تفصيل القول فيها تفصِيلا لا يأذن به المقامُ والجهدُ والوقتُ . ولعلّ الله سُبْحانَه وَتَعالَى يعينُ على ذلك على أن أعين من طلاب العلم من يفعل على وجهٍ يُرْضِيه جل جلاله .

كان ـ جزاء وفاقًا أن يستطيع أحدٌ أن يُؤسّسه فيه . فكلُّ ما هو فطريّ ، لا سبيلَ إلى تحصيله إلا بعطيةٍ ربانيّة .

وتسميتُه طبعًا تهدِي إلى أنّـه إن ابتلي ما يُضعفه فإنّه لا يزولُ بتمامِه منه إلا غضبةً من ربّك سُبحانهُ وَتَعَالَى ، وفي هذا تلويح إلى سبيل الحفـاظِ عليـه حَيًّـا في النّفس بالتحاجز عما يثتير غضب الله سُبْحانَه وَبِحمدِه . .

وفي تسميته ذوقًا التفاتٌ إلى سبيلِ الإحساسِ به ، وأنَّه في ما هو غيرُ حسيّ من مطعوم النّفسِ والعقلِ والقلبِ والـرُّوح كمثـل مـا هـو حسـيٌّ مـن مطعـوم الجسدِ .

وإذا ما كانت أداة الذَّوق لِما هو محسوسٌ قد غلب على أنّـها اللسان ، فـإنَّ الَّـذي هـو حقّ أنَّ كلّ مَحسوسٍ مِن مَسموعٍ أو مَنظورٍ أو مشمومٍ أو ملمـوسٍ أو مطعومٍ له أداته ، وإدراك هذه الأداة حال ما هـي أداة فيـه هـو ذوق أي خبرٌ وعلم بهذه الحال ، فالعينُ تذوقُ ما ترى ، والأذنُ تذوقُ ما تسمَع . . . أي تخبر وتعلم حال ما هي آلةٌ فيه .

وعلى هذا فلكلّ نوعٍ من المُدركات غـيرِ الحسـيَّةِ أداة تذوقُـه بهـا أي تعلـم أمرها على حقيقتها وتخبرُ به على ما وجدته .

فالتذوق طريقٌ إلى إدراك الأشياء محسُوسِها ومعقولها ، وهو أسَاسٌ مكينٌ لأن يحيى المَرْءِ في الأشياءِ وبالأشياء ، فبغيرِه ، يكون وجودها من حوله وعدمُ وجودِه فيها سواءٌ ، على الرَّغم من أنـّه الكـائنُ الأوحـدُ الّـذي جعلـتْ الأشـياءُ مُسخَّرًا له : قابلةً لأنْ يفعلَ بها ما يريدٌ إذا كان فعلُه فيها وبها عَلى هَـدي مـن المرادِ الشَّرعيّ لله سُبْحانَه وَبِحمدِه ، فبغير هذا التذوق لا يتحقّقُ تفعيلُ التسخير المنةِ والعطيةِ الرَّبانيّةِ للإنسان ، فيكونُ هذا من ضُـروبِ الكفـر بالنّعمـةِ وردّهـا على منعمها جَلَّ جَلالُهُ .

وللأستاذ الأكبر محمود شاكر رحمَه الله تعالى رؤية للتَّذوق في حقيقَتِه وفاعليتِه وأهَميته، يجعلُ منه روحَ الوجود الآدميّ للإنسان معمرًا للكونِ والحياة: «كلّ حضَارةٍ بالغةٍ تِفقدُ دقةَ «التذوّق» تفقدُ معها أسبابَ بقائها.

و«التّذوّق» ليْسَ قوامًا للآدابِ والفنونِ وحدَهَا، بلْ هُو قوامٌ لِكلِّ عِلْمٍ وَصِناعةٍ علَى اختلافِ باباتِ ذَلِكَ كلِّهِ، وتبيانِ أنْواعِهِ وَضُرُوبِهِ.

وكلُّ حضَارةٍ ناميةٍ تريدُ أن تفرضَ وجودهَا، وتَبلُغَ تمامَ تكوينها إذَا لَمْ تَسْتَقِلَّ بتَذَوّق حسّاسٍ حادٍّ نافذٍ تَختصُّ بِهِ وتنْفَرِدُ لَمْ يكنْ لإرادتها فِي فرضِ وُجُودِهَا مَعنًى يُعقلُ، بلْ تكادُ هَذِهِ الإرادَةُ أنْ تكونَ ضَرْبًا مِن التّوهمِ والأحلامِ لا خيرَ فِيهِ.

فحسْن «التّذوقِ» يعنِي سلامةَ العقلِ والنّفسِ والقلبِ من الآفاتِ، فهو لبُّ الحضَارةِ وقوامها، لأنّه أيضًا قوامُ الإنسانِ العاقلِ الْمُدرِكِ الَّذي تقُومُ بِهِ الحَضَارةُ.

وهذا شَيْءٌ لا يَكادُ يَختَلِفُ عَلَيْهِ اثنان فِي ما أظنّ»(١).

كأني بالأستاذ الأكبرأبي فهرٍ لما رأى أن الذي هو مبدأ كلّ فعلٍ يُنسبُ لفاعلِه وروحُه إنّما هو «التذوق» من أنه إدراك ذاتيّ للأشياء لا يسْتعارُ ولا يُرفدُ، ولا يشْتبه بشيْءٍ عند الآخرين، فهو عنوان فاعلِه، ومرآة حقيقته، وكان لابد أن يكون حاضراً في كلّ مراحل الفعل ومستوياتِه آثر أن يطلقه على الفعل الآدمي للأشياء وفِي الأشياء وفي الكونِ والحياة جمعاء. فليس ثَم فعلٌ آدميّ إلاَّ وجُرثومته «التذوّق» الذي لا يتناسخ مع الآخرين. وبمقدار خصوصية هذا التّذَّوق، ومقدارِ فتوَّته وفاعليتِه تكون الأشياءُ على تنوعها وتعدّدها.

---

(١) أسمار وأباطيل. تأليف: محمود محمد شاكر. ط(٢) ١٩٧٢م، مطبعة المدني بالقاهرة ص ١٣٤.

وعلامة تحقّق الذّوق هُو انفعال صَاحِبِه بالأشياءِ التي وقع عليها الذّوق محسوسًا أو غيرَ محسوسٍ .

وفي تسمية هذه الأداة «الذَّوق» إِشارة إلى المباشرة في التّواصل بيْن المتلقِّي والبيان ، وأنَّه ليس هنالك وسيطٌ من خارجِ متلقّي هذا البيان ، كما أنّه ليس بيْن المطعوم واللّسان واسطةٌ في إدراك اللّسانِ حالَ ما يُطعم . وهذه المُباشرة تحقّق صدقَ العِلمِ بالخبرِ أيْ خبرَ الحالِ الّتي عليْها المَطعوم ، وهذه معانٍ مُهمةٌ جدًّا في تلقّي البيان .

وفي تسميته (قريحة) إشارة إلى فاعليتِه ، وأنّه يقترح ما ليس له حضورٌ من قبلُ من المعارفِ والإدراكاتِ الجماليّة في الذّاتِ الحاملته .

* * *

وإذا ما كان الأجدادُ في مُدوناتهم ذوي احتفاء بالذوق ، فإنّهم لم يحتفوا بتعريفِه ، وإن أشاروا إلى مخرَجه ، وأَنّه عطاءٌ ربانيّ ، وإلى أهميته وفاعليته . وكان لحازم الأنصاريّ القرطاجنيّ (ت : ٦٨٤هـ) فضلٌ في تعريفِه أداة من أدوات صِناعةِ الشعر ، وما كان كذلك في إبداع البيان هو كذلك في تلقيه ، يَقول : «الطَّبعُ هو استكمالٌ للنَّفسِ فِي فهمِ أسرارِ الكلامِ ، والبَصيرة بالمذاهبِ والأغراضِ الَّتي مِن شأنِ الكلامِ الشّعري أن يُنحَى به نحوَها ؛ فإذا أحاطتْ بذلك علمًا قَوِيت على صَوغ الكلام بحسبِه عملا ، وكان النّفوذُ في مقاصد النَّظم وأغراضه وحُسن التَّصرفِ في مذاهبِه وأنحائِه إنّما يكونان بقوَى فكريّة واهتداءات خاطريّة تتفاوتُ فيها أفكارُ الشُّعراء»(١) .

---

(١) منهاج البلغاء . تأليف حازم القرطاجنّي . تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة . دارالغرب الإسلامي . بيروت . ص١٩٩ وينظر في مفهومه أيضًا : مقدمة ابن خلدون . ضبط محمّد الإسكندراني . نشر دار الكتاب العربي ط(١) عام ١٤١٧هـ. ص٥١٥)،==

والذَّوق هو الأقدرُ على معرفة مناطِ الحسنِ والقبحِ في البيان ، فبغيره لا يتأتي للمتلقّي أن يضعَ يده على موضعِ الحُسن أو القُبح أو التّميز أو الفرق بيْن حُسنٍ وحُسن . . . . إلى تحقيق المناط أو خطوةٍ في القراءة المثمرة .

الذَّوقُ إذن هو أداة تحديد مناط الحُسنِ والقُبح ، وليس أداة استخراجهما ، فذلك أداة أخرى مترتبة عليْها .

ولستُ هُنا بصددِ بيان قيمة الذّوق في القراءة مطلقًا ، لأبسط فيه القول ، بل بصددِ مقامِه في أدوات الشَّيخ في قراءته بيان النُّبوَّة خاصّة .

وللشّيخِ أبي موسى رؤيةٌ في حقيقةِ الذّوق والتّذوق وطبيعته وفاعليته ، تتمثلُ فِي « أنَّ التّذوّقَ غايةُ مَا يُدْرِكُه ذُوالطّبع مِن الشّيّءِ الّذِي يروزُهُ ، ويلْتبسُ بِهِ ، ومنْهُ تذوّقُ البيانِ ، وهِي تَعنِي التّغلغُلَ الواعِي الْبصِيرُ فِي خفَايا البيانِ تَغَلْغُلاً يُفْضِي إلَى مَعرفةِ دقائقِهِ وأسرارِهِ مَا ظَهرَ مِنْهَا ومَا بَطنَ ، فَإذَا كان بَيانًا إنْسَانيًّا أَفْضَى هذّا التّغَلْغُلُ إلى معرفَةِ مَا وراءَهُ مِن أحوالِ النفسِ وَهواجسِ النّفسِ ، وأهواءِ النّفسِ الّتِي انتهتْ إلَى اللسانِ البصِيرِ بِوسَائلِ البيانِ ، فأفضَى بِهذِهِ الهواجسِ والأهواءِ والغرائزِ ، وأنطقَ بِهَا اللّفْظَ والتّركيبَ والرّنينَ نُطقًا يَظهرُ ويَخفَى عَلَى وَفقِ أحْوالِها فِي النَّفسِ مِن ظهور وخفاءٍ ، وأنْ مَا يَهمِسَ بِه ، ويُوحِي بِهِ هو سرّهُ الأعْلَى ، وهو الأنفسُ والأسنَى ممَّا يَجهرُ بِه ويُسْمَعُ »(١) .

* * *

== وكتاب « التذوق الأدبيّ » تأليف إبراهيم عوض مكتبة الثقافة . الدوحة . قطر . عام ١٤٢٦هـ . ص٧ ، وما بعدها ، وكتاب « التذوق الأدبِي : طبيعته . نظرياته . مقوماته . معاييره . قياسه . تأليف ماهر شعبان عبد الباري . ط(٣) دار الفكر . عمان . الأردن . سنة ٢٠١١م . ص ٨٢-٩٣ .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٣٦/١ .

والشّيخُ جدٌّ حفّي بالذّوق الرّشيدِ في تلقيه بيان النّبوّة ، فهو حاضرٌ فيه حضوراً لا يكادُ قارئٌ ما رَقنت يَمين الشّيخُ أن يغيمَ عنه شيْءٌ منه سواء في بصرِه المعنى ، وسياقه ، وحركته ، وتصاعدِه والالتفات إلى مركز القصد ، أوفي بصرِه بحالِ صُورةِ المعنى : مكوناتها وتكوينها ، وقدرتها على حَملِ القارئ المتذّوق إلى المَعنى والقصد ، فكلُّ ذلك حاضرٌ فيه الذّوق الفتيّ الرَّشِيد لدَى الشَّيخ ، ولا أحسبُ أنّ منْ يقرأُ صَحفةً من كتابه في قراءِته حديثًا من أحاديثِ النّبوّة إلاّ وهُو مبصرٌ ذوقه قائمًا في ما يقرأُ . وما سنشير إليه من مقالاته أنت تبصرُ فيه حضورَ الذَّوق وفاعليته .

والذوقُ عنده يمتطي صَهوةَ العلم والثقافةِ والخبرةِ والدّربةِ فمهما بلغت هذه الأشياءُ فتوتها ، فإنَّ الذَّوقَ لا يخضع لسلطوتِها ، بل هي الخاضعة لسطوتِه ، فهو أمُّ القرَى . ولكنَّ هذه لها فيه أثرٌ حاضرٌ غيرُ متسلِّطٍ : فمن العلم والمعرفة غذاؤه ، ومن الثَّقافة تهذيبُه وتشذيبُه وتثقيفُه ، ومن الخبرةِ والمرانِ والدّربةِ صَقلُه وتجليتُه وتفعيلُه .

ولستَ ترَى أيّ موقفٍ من مواقف تلقيه بيانَ النُّبوّة في هذا الكتاب إلا و« الذوق » الرَّشيد المثقف النَّافذ في أغوارِ البيان حاضرٌ ظاهرٌ ، ممَّا يجعلُني في حَيرةٍ مِن أمرْي أيّ أُنموذج أحملُه إليك هنا لِتبصرَ فيه حضورَ ذَوقِه الرَّشيد المثقف المُتغور في ما يتلقاه من بيانِ النّبوّة .

ولمّا كان « الذوق » لا يفعلُ إلا بأداة أخرى هى تفؤد القلبِ وذكاؤه رأيت أن أجمع بيْن مجاليْهما في موضعٍ ، وأن أغدو إلى القول في الأداةِ الأخرى « ذكاء القلبِ وتفؤده » ثم أرتحلُ بك إلى مايتجليان فيه من مقالات الشيخ .

* * *

الأداة الثانية : ذكاء القلب وتفؤده

أقوى أدواتِ القراءة المثمرةِ بيان الوحي قُرآنًا وسنة هو ذكاءُ القلبِ .

و« القلبُ » هو الأداة الفاعلة في مراحل التلقّي الخمس ، وهي على الترتيبِ تصاعدًا : الإدراكُ ، فالعقلُ ، فالفقه ، فالعلمُ ، ثُمّ الفهم .

مبدأُ الأمر (الإدراك) ومنتهاه (الفهم) وأداة ذلك كله (القلب) وله في كلِّ مرحلة حالٌ ، والمراحل الثلاث الأُول ، يكون الفعلُ الكسبيّ هو الأقوى في تحقيق هذه المراحل ، والمرحلة الرَّابعة (العلم) يكونُ حضور ما هو وهبي ممزوجًا بما هو كسبيّ ، فليس كلُّ فقيه عالمًا ، وإن أَحاط بكلّ دقائق قضايا العلم الذي هو فيه فقيه أو الفقيه ، لن يجعله ذلك (عالمًا) فالعالمُ وارثٌ النبيّ ـ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ـ في إخراج النّاسِ من الظلمات إلى النور بلسان حالِه ولسانِ مقالِه وهذا لا يكون إلا إذا غلبت (الحكمة) فيه (الفقه)

أما المرحلةُ الخامسة (الفهم) في شرف الأمرِ وذروة سنامه ، ولا تكونُ إلا لخاصّة الخاصة ، لأنَّ الفهم لا يقع إلا على شَرفِ المعاني الإحسانية من معاني الهدَى وهذا لا يكونُ إلا لنزير من العلماءِ

ذكاءُ القلبِ هو قدرته على إنضاجٍ ما تلقاه من بيان الوحي قُرآنًا وسنة . هذا الإنضاجُ هو الَّذي يجعلُ ما تلقاه فاعلاً في الأمّة ، لأنّه أضحى غذاءً قابلاً لأن يتلقّى وأن يفعلَ في القلوبِ ، فيمنحها ما تحتاجه من غذاءٍ أو داوء ، فتضبطُ حركة الجوارح ضبطًا محكمًا وتسوسها سياسةً حكيمةً .

ذكاء القلبِ عندِي ليْسَ هو « الذّوقُ والتذوقُ » بل هو أمرٌ من وراء ذلك ، الذّوق كما مضى إدراك الأشياء على حقائقها والمعرفة بأحوالِها وأقدراها ، أمّا ذكاء القلْبُ وتفؤده فمرحلة تاليةٌ لمرحلة « التذوقُ » بغيرها يكون أثر « التَّذوق » خداجًا ؛ لأن الاستفادة إنما تحقق بهذه الأداة : أدلة « ذكاء القلبِ وتفؤده »

ذكاءُ القلبِ إذن ليس هو عقلُ المعرفة وحفظها ، وترديدها ، هذا من فعل من يحملون العلم والمعرفة ، فهم أوعية ما يُنتجه غيرُهم ، ولا يملكون منه شَيْئًا ، : هم حرسٌ عَلَيْهِ ولا يملكونه ، ولا يحرثونه ولا يستزرعونه(١) .

الشيخُ يملك هذه الأداة ، بل هي أقوى ما يملك فيما أحسِبُ ، فهولا يفضُلُ كثِيرًا من أقرانه باتساع علمه ، ومعرفتِه وتنوع ثقافتِه فَحسبُ ، بل ما يفضلهم به في ذكاء قلبه ، وإنضاجه ما تلقاه ، فكنّا وما زلنا ، نسمع عويصَ المسألة من شيخٍ من شيوخنا ، فنتلقاها إدراكًا ووعيًا ، ولا يكادُ يتحرك القلبُ بها ، فتبقى من محفوظِنا ، ثم نسمعُها من شَيخنا أبي أحمد فأشعرُ بأنَّ شيئًا بَدَأَ يتقاطرُ في قلبِي ، فأدرك أنّ قلبِي بَدَأ يطعمُ ما سَمع . فيستحيل من بعدُ شيئًا مِن مكونِه المعرفيّ الفاعل .

تلك حقيقةٌ أدركتُها في الشيخ ، وأنا أقرأُ ما كتب ، أو أسمعُ ما يقُولُ في مجالسِه العلمية ، ممّا يجعلني قليلَ المُداخلَة والسّؤال وهو يُعلمنا . لأنّي مشغولٌ بالتلقّي ، ثم إذا ما فرغتُ بدأتُ مرحلة هضم ما تلقيتُ ومُراجعتِه ، وتثويرِه واستثمارِه . .

ومعالم ذكاءِ قلبه في ما كتبه في « شرح أحاديث من صَحيح مسلم » قائمة في كلّ حديثٍ ، ولا سيّما الأحاديثُ التي يركزُ فيها على أمرين رئيسين :

الأولُ : علو شأنِ رسُولِ الله ﷺ في الأخذ بيد أمّته إلى النّورِ والعزةِ أخذًا فتيًّا رؤوفًا عطوفًا . فيصوّر لك من بيان رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلى

---

(١) يتوهم كثيرٌ أن « الذكاء » هو القدرة على الإمساك بالمعرفة حين يدركها سمعًا أو قراءة أو مشاهدة . واسترجاعها عند طلبها . هذا غيرُ دقيق . الذّكاء مأخوذ من ذكت النارُ أي اشتد أوارها ، يقال : « ذَكَتِ النارُ تَذْكُو ذُكُواً وَذَكًا ، مَقْصُورٌ ، واسْتَذْكَتْ ، كُلُّه : اشْتَدَّ لهَبُها واشْتَعلت . . . والذكاء : شدة وهج النارِ ومنه سُميت الشمسُ ذُكاءَ . » ، فذكاء القلبُ هو قدرته على إنضاج ما يتلقاه كما تنضج النار الذاكية ما توقد عليه من طعام ونحوِهِ .

آلِهِ وصَحبِهِ صُورة الحاني عليك العطوف ، فلا تملك إلا أن تهتف بالصّلاة والسلامِ عليه ، وبالدعاء للشيخ برفع ذكرِهِ في عباد الله الصالحين . يقُول الشيخ هاديًا : «لا تُهملْ ، ولا تُغفلْ جانبَ الهدايةِ والرَّحمةِ ، وأنت تقرأُ ما تقرأُ في كلامِ الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وكيف يتعهّدُ الإنسان ؟

وكيفَ ينزعه من مزالقِ الخساسةِ ؟

وكيفَ يرتقِي بهِ إِلى مدَارِجِ القِيمِ النّبيلةِ؟

وأنّ هذِه رسالةُ الدينِ ، ورسالةُ الخالقِ إلى خالقِهِ ، وأنها الصّالحاتُ ، وأنّهَا هي البُعدُ عن السّيئات ثُمّ تذكّرْ كيفَ يُعارضُ مَن يُعارضُ هذا التوجِيهَ إلى الحياةِ الأفضلِ والأكرم ؟» (١)

والآخر : أنّه لم يكتفِ بأن يثوّرَ ما في بيانِ النُّبوة من خصائصِ التّراكيبِ وأنماطِ التَّصوير التي هي كلُّ طَلبةِ كثيرٍ من طلابِ العلم ببلاغةِ العربية ، بل هو يتجاوزُ إلى ما يَجعلُ تثوير هذه الخصائصِ التركيبيّة وأنماطِ التَّصوير وسيلةَ إلى غاية أجلّ وأجملُ : العرفانُ القلبيّ بمنهجِ النّبوّة في إخراجِ النَّاسِ من الظلماتِ إلى النور ، واكتساب مهارةِ الاقتداء بذلك في حركتنا العلمية والدَّعوية والسُّلوكيّة ، كلُّ ذلك وقبلُه إفعام القلب بجلالِ النّبوّة وجمالِها .

* * *

نراه يستطعم كلمةً في سياقٍ يرى أنّه قد تفسّر بكلمةٍ أخرَى ، فيرى فرقًا فسِيحًا عميقًا بين الكلمةِ وما تفسر به ، فممّا يهدي إلى أنّ تفسير البيان لا يقُوم مقامِه ، ففرقٌ بين ما اقتضاه السياق ، وما يلجأ إليه المفسر مقربًا .

من ذلك ما كان من تذوقه ما رواه مسلم في كتاب «الإمارة» من صَحيحِه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَذَكَرَ

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٥٢/١

الْغُلُولَ ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « لاَ أُلْفِينَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَه رُغَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي . فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ . . . . » الحديثَ .

يتلبث الشَّيخُ عند قول سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « لاَ أُلْفِينَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . . » فيسعَى إلى تذوق البيان بهذا الفعل الذي يفسر بالفعل « لا أجدنَّ » فيبدأُ ببيانِ دَلالة النّهي في هذه الجملة الذي عدل به عمَّا هو المتوقع ، فيبصرُ أنّ النَّهي دخل على المُضارعِ « ألفى » مُسندًا إلى ضمير المتكلم ﷺ ، فيدركُ أنّه إذا « قيل لا أُلفينك ههنا » فليس القصدُ إلى النَّهي عمَّا دخل عليه النَّهيُ : الفعل المُضارع ، بل ما استوجبَه ، وهُو الوجودُ ، فَوجودُ المخاطَبِ في المكان يترتبُّ عليْه الفعلُ المُضارعُ الَّذي هُو مدخولُ النَّهي ، عَدَل عَن أنْ يقالَ لا تكنْ هَهُنا ، إلى ما يلزمُ هذا ، هذا العدولُ عن إدخال النَّهي عن الملزومِ الَّذي هُو مناطُ القصدّ إلى الّلازم هُو مِن سُبل توكيدِ النَّهي ، لأنك إذا ما نهيْت عَن الّلازم فأنْت لا مَحالة ناهٍ عَن ملزومه ، لأنَّه حيثُ كان اللازمُ كان الملزومُ ، وهذا سبيلٌ من الدلالة الكنائية ، وفيه فَيضٌ من التَّوكيد ، لايكون مثله حين يكون التوكيدِ بأداةٍ من أدواتِه .

من بعدِ أنْ أبان عَن تركيبِ صُورة المعنى ، وعَنْ طريقِ دلالتها على المقصُود عَمَد إلى بيان ما في اصطفاءِ الفعل « ألفين » وهُو الَّذي يُفسَّر بالفعل : (أجدنَّ) ومن ثَمَّ قد يَرِدُ كلٌّ في سياقٍ يَقتضيه ، وليسا سواء على ما جاء في كتاب الله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (المائدة:١٠٤)

obeikandl.com

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (لقمان: ٢١)

يذهبُ الشَّيخ إلى أنّـه « ليس مِن الْمقبولِ أنْ نقُول إنّهما سواءٌ وأنَّ قوله عليه السلام : « لا أَلْفينَّ أحدَكم » هو قولُنا : « لا أَجِدنّ أحدَكم » ؛ لأنَّ هـذا يُوجـبُ العبثَ فِي اللغةِ ، وقدْ أجمعُوا علَى أنَّ هذِهِ العربيّة الشَّريفةَ منزّهةٌ عن العبثِ

ووجهُ العبثِ أنْ تكونَ فيها كلمتان متساويتين فِي الدلالةِ ، لأنَّ وجودَ الثّانيةِ عبثٌ واللغةُ فِيها كثيرٌ من الكلماتِ الّتي تفسّر بعضُها ببعَضٍ ، كما هنـا ، وقـد صَادفنِي كثيرٌ منْ ذلِك فِي دراستِي لـ« آل حم » ولم أجدْ كلامًا لِمَنْ يُؤخذُ عَنهم العلم يُعينني علَى أنْ أفرّقَ بيْن الكلمتين ، وكنتُ أجتهدُ « ويخطئُ في الحدسِ الفتَى ، ويُصِيبُ »

وطـريقِـي فـي ذلك إلـى الرّجـوعِ إِلَـى أصلِ المادّةِ في الاشـتقاقِ الصّغير أو الكبيرِ .

وكلمة « ألفاه » فيها معنى زائد عـن كلمـةِ « وجـدَه » ؛ لأنَّ فِيهـا شـوبًا مـن الألفـةِ ، وألفيـنا عليْهِ آباءنـا ، أي وجـدنـاه وألفنـاه ، و« لا أُلفين أحـدكم » أيْ لا أجده وجودًا على حالةٍ قد ألِفها ، لأنّ البَعيرَ الَّـذي علـى الرَّقبـةِ يبقـى يَـومَ القيامةِ ، وهو يومٌ عند ربك كألفِ سنةٍ ممَّا تعدُّون ، وهو كـذلِك حتّـى يُسـاقُ الناسُ بعد الحساب إمَّا إلى جنةٍ ، وإمَّا إلى نارٍ .

وكلمة « وَجدنا عليْهِ آباءنا » فِيها شَوبٌ من الميلِ إلَى الّذي كانَ عليْهِ الآباء ، وهذا الميلُ يرشَحُ علَى الكلمـة مـن أختِهـا الّـتي هِـي « الوجـد » وهِـي أخـت « الوجود » فِي الاشتقاقِ .. » [١].

---

(١) شرح أحاديث من صَحيحِ مسلمٍ . ص ٢/٥٤٨، ٥٤٩

في هذا البيان من الخير ما نفتقرُ إلى تبيينه ، لعلنا نهتدِي به فيما قد يعنّ لنا في تلقّي مثل ذلك البيان :

منطلق شيْخِنا متمثّل في مذهبِهِ إلى أنّـه ليسَ في العربيةِ كلمتـان متطابقتـان في «المعنى» و«الدَلالة» ؛ لأنَّ ذلك يلزمُه العبثُ .

والقول بانتفاء «الترادف» : (التطابق بَيْن كلمـتين معنًـى ودلالـة) نـاظر إلى أصُول مذهبيّة منها ما قررته نظرية «الـنظم الجُرجانيـة» في مسـتوى التركيـب فقد قضَى الإمام بأنَّـه إذا ما تقاربتْ جُملتان تقاربًا جدَّ عظيم ، وكان ثَـمّ فـارقٌ ما فإنَّ هذا الفارق يقضي بأن بيْن النَّظمين فرقًا في المعنى والدّلالة .

يقُولُ الإمام «لا يكونُ لإِحدى العِبارتين مزيّةٌ عَلَى الأُخرى ، حتى يكونَ لها في المعنى تأثيرٌ لا يكونُ لصاحبتها»[1] .

فإنْ قلتَ : فإذا أفادتْ هذه ما لا تُفيدُ تلكَ ، فليسَتا عبارتَيْنِ عَنْ معنى واحدٍ ، بل هُما عبارتان عن معنَيَيْن اثنيْنِ .

قيل لكَ : إنَّ قولَنا «المعنى» في مثل هذا ، يُـرادُ بـه الغَـرضُ ، والـذي أرادَ المتكلمُ أن يُثْبته أو يَنْفِيَه ، نَحْو إنْ تَقْصد تشـبيهَ الرجـلِ بالأسـد فتقـولَ «زيـدٌ كالأسد» ، ثم تريدُ هذا المعنى بعينِهِ فتقولُ : «كأن زيداً الأسدُ» ، فتُفيدُ تشبيهَهُ أيضاً بالأَسدِ ، إلاَّ أنك تَزيدُ في معنى تشبيهِهِ به زيادةً لم تَكُنْ في الأوَّلِ ، وهي

---

(١) قولهُ « مزية على الأخرى» يفيد في سياقِه أن«المزية» هو الخصُوصـية النظميـة الـتي في العبارة من نحو تقديم أو تعريف أو نحـو ذلـك ، فالمزايـا هـي الظـواهر النظميـة القائمة في البيان . ولعل هذا يدفع قول من قال إن الخصائص ما كان ظاهرة تركيبيـة فهي إلى علم المعاني ، والمزايا ما كان ظاهرة دلالية فهي إلى علم البيان .
قد يكون هذا مقبولا إذا اجتمعا فقال الخواص والمزايا أما إذا أفردا فيدل كـل عليهمـا معا : الظـاهرة النظميـة والظـاهرة الدلاليـة . فهمـا يفترقـان معنـى إذا اجتمعـا لفظـا ، ويجتمعان معنى إذا أفردا ، وهذا كمثل كلمة (سبحان) و(تعالى) في البيان القرآني إذا اجتمعا تميزا معنًى ، وإذا أفردا التقيا معًا .

أنْ تَجعله من فَرْط شَجاعته وقوّةِ قَلْبه ، وأنَّـه لا يَرُوعُه شيْءٌ ، بحيْث لا يتَميَّـزُ عن الأسدِ ، ولا يُقصِّر عنه ، حتَّى يتوَّهَم أنّـه أسدٌ في صُورة آدميٍّ .

وإذا كان هذا كذلك ، فانظرْ هـل كانـتْ هـذه الزّيـادةُ وهـذا الفـرقُ إلاَّ بمـا تُوَخِّيَ في نظمِ اللفظِ وترتيبهِ ، حيثَ قُدِّم «الكافُ» إلى صَدرِ الكلامِ ورُكِّبتْ مع «أنَّ» ؟ وإذا لم يكنْ إلى الشَّكِّ سبيلٌ أنَّ ذلكَ كانَ بالنَّظم ، فاجعلْه العِبْـرَةَ في الكلام كله ، ورُضْ نَفْسَك على تفهُّم ذلكَ وتَتبُّعه ، واجعلْ فيها أنك تزاولُ منه أمْراً عظيماً لاَ يُقادَرُ قَدْرُه ، وتَدخلُ في بحرٍ عَميقٍ لا يُدْرَك قعرُه»[1].

عبد القاهر لم يقل إنَّ الجملتين اختلفتا في الغرضِ العام الذي هـو التشـبيه بالأسد ، لكنهما تفاوتا في المعنى البياني والأثر النّفسِـي وفي دلالـة كـلّ علـى ذلك المعنَى ، فالغرض الذي اختلفتا فيـه عنـد عبـد القـاهر هنـا هـو الغـرضُ الخاصّ (وهو يشمل المعنـى المقصُـود المكنـون في صـدر المـتكلم والمعنـى المدلول الحاملته صورة المعنى المقصُود) ، وليس مجرّد التشبيه العامّ .

هنالك ثلاثة أنواع من المعنى :

«المعنى المقصُود» وهوالمعنى النفسِي القائم في صدر المتكلّم .

و«المعنى المدلول» وهوالذي تحمله العبارة من مقصود المتكلم المصـنوع في صَدرِه .

و«المعنى المفهوم» وهو الذي يتلقاه السّامع من العبارة . في سياقها المقالي والمقامي .

لا تتطابق هذه الأنواع الثلاثة في البيـان الإنسـانيّ ، ولكنهـا في بيـان الـوحي يتطابق المعنى المقصُود والمعنى المدلول ، أمّا المعنى المفهوم ، فهُو لا يتطابق البَتة مَع المعنى المقصُودِ والمعنى المَدلول ؛ لأنـّه راجعٌ إلى «المتلقي» وليس

---

(١) دلائل الإعجاز(م . س): ص ٢٥٨ فقرة : ٣٠٠

هنالك متلقٍ يكونُ فهمُه مِن الكلام متطابِقًا تطابقًا كامِلا مع المعنى المقصُود الرَّاجعِ إلى المتكلِّم ، ومَعَ المعنى المَدلول الرَّاجع إلى دَلالة الصُّورة على المعنى في سِياقها .

وإذا كان هذا في ما بيْن الجُملتين بيْنهما فرقٌ يَسير في الصُّورة ، فإنَّ عبدَ القاهر يذهبُ إلى أنّه ليس هنالك كلمتان هُما سواءٌ فِي كلّ نظمٍ وسِياقٍ فلكلّ معنًى لفظه الخاصّ . يقولُ وهُو يحقق القولَ في البلاغة والفصاحةِ والبيانِ والبراعةِ وما شاكل ذلك : « ومِنَ المَعلومِ أنْ لا معنَى لهذه العباراتِ وسائرِ ما يَجْري مَجراها ، ممّا يُفردُ فيه اللفظُ بالنَّعتِ والصِّفةِ ، وينسبُ فيه الفضلُ والمَزيَّةُ إليه دونَ المَعنى ، غيرُ وصْفِ الكلام بِحُسْنِ الدَّلالة وتمامِها فيما له كانت دَلالةٌ ، ثم تَبرُّجِها في صورةٍ هي أبهى وأزْيَنُ وآنَقُ وأَعْجَبُ وأَحقُّ بأنْ تستوليَ على هَوى النفس ، وتنالَ الحظَّ الأوفرَ من مَيْل القلوب ، وأولى بأن تُطْلِقَ لسانَ الحامدِ ، وتُطِيلَ رغْمَ الحاسد .

ولا جهةَ لاستعمال هذه الخصال غيرُ أنْ تأتي المعنى من الجهة هي أصح لتأديته . وتختارُ له اللفظُ الذي هو أَخصُّ به ، وأَكْشَفُ عنه وأَتمُّ له ، وأَحرى بأن يَكسبه نُبلاً ، ويظهر فيه مزية . »(١)

عبد القاهر كما ترى نعت اللفظ الذي هو صُورة المعنى بخَمسة نُعُوت ، وهي ليستْ بِمنسوقة على سبيل التَّرادف لتحسين العِبارة ، بل هِي منسوقةُ نسقًا يكشفُ عن خصائص اللفظ .

ترى أوَّل خاصة هي أن يكون اللفظ أخصّ بالمعنى وهذا يقضِي بأنَّه ليس هنالك ترادف لا على مستْوَى الكلم أو الكلام . فصورة المعنى في المفرد وفي الجملة ، إذا اختلفت اختلف المعنى . وهذا الذي جاء بِه عبدُ القاهر حمله من سلفه ومن حمله عنهم أبو سليمان حمد الخطابيّ (ت : ٣٨٨هـ) يقُول :

---

(١) دلائل الإعجاز . ص : ٤٣ فقرة : ٣٥

obeikandi.com

«اعلم أنَّ عمودَ هذه البلاغةِ التي تجمع لها هذه الصفات هو وضعُ كلِّ نوعٍ من الألفاظِ الّتي تشتملُ عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرّونق الذى يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن فى الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب . . .

والأمرُ فيها وفي ترتيبِها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأنَّ كلَّ لفظةٍ منها خاصيَّة تتميّزُ بها عن صاحبتِها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها»(١)

وهذا الذي أقام عليْه «الخطابي» أمره كان «أبو هلال العسكري» (ت:٢٩٥هـ) قد قرّره بقولِه : «الشَّاهِدُ على أَنَّ اخْتلافَ الْعبارَاتِ والأسماءِ يُوجبُ اخْتِلافَ الْمعَانِي أَنّ الاسْم كلمةٌ تدلُّ على معنى دلالَة الإِشَارَة وَإِذا أُشير إِلَى الشَّيْء مرّة وَاحِدَة فَعرف فالإشارة إِلَيْهِ ثَانِيَة وثالثة غير مفيدة وواضع اللُّغَة حَكِيمٌ لا يَأْتِي فِيهَا بِمَا لا يُفِيد فَإِن أُشير مِنْهُ فِي الثَّانِي وَالثَّالِث إِلَى خلاف مَا أُشير إِلَيْهِ فِي الأول كَانَ ذَلِك صَوَابًا ، فَهَذَا يدلُّ على أَنَّ كلَّ اسْمَيْنِ يجريان على معنى من الْمعَانِي وَعين من الأَعْيَان فِي لُغَة وَاحِدَة ، فَإِنَّ كلَّ وَاحِدٍ منْهما يَقْتَضِي خلافَ مَا يَقْتَضِيهِ الآخرُ وَإِلا لَكَانَ الثَّانِي فضلاً لا يحْتَاجُ إِلَيْهِ وَإِلَى هَذَا ذهب الْمُحَقِّقُونَ من الْعلمَاء»(٢)

---

(١) بيان إعجاز القرآن ، تأليف : أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت:٣٨٨هـ) تحقيق محمد خلف الله ، دكتور محمد زغلول سلام ، نشر : ضمن كتاب : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (سلسلة : ذخائر العرب عدد ١٦) دار المعارف . مصر . ط(٣) سنة : ١٩٧٦م . ص : ٢٩

(٢) الفروق اللغوية . تأليف أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت : نحو ٣٩٥هـ) تَحقيق : محمد إبراهيم سليم . نشر دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة . ص : ٢٢

فهؤلاء الثلاثة الأعلام في العلم بلسان العربية إفهامًا وفهمًا لا يذهبون إلى القول بالترادفِ (التطابق بَيْن كلمتين معنًى ودلالة) [1] لما يترتَّب عليْه من العبثيّة .

والقولُ بأنَّ العبثيّة لازمٌ القولَ بـ« التَّرادف » إنّما مخرجُه الذَّهاب إلى أنّ الوضع اللغوي للألفاظ كان من واضعٍ في زمان ومكان واحد ، وليس من واضعَين اختلفا زماناً ومكانًا ، كأنْ تكون قَبيلةٌ قد وضعت لأداة الذّبح اسم « الْمُدية » وقبيلة وضعت لها اسْمَ « السِّكين ».

ومن جعل الوضع واحدًا كأنّه يذهب إِلى أنّ الوضعَ اللغويّ توقيفٌ أوتوفيقٌ وإلهامٌ كالتوقيف . وهو أقرب .

والأهمّ أنَّ العقلَ البلاغيّ لا يُعنَى بشأنِ اللغَةِ خَارجَ سِياق الاستعمال في غالبِ الأمر ، وإنّما مناط عنايتِه بها داخل سياق الاستعمال .

والقولُ بتعدّد الواضعين الّذي لا يلزمه القول بعبثية « التَّرادف » عندَ مَن يقُولُ بِه لا يضرُ لأنَّ مَردَّ « البلاغة » الَّتي هي مجالّ التّفاضل بيْن المتكلمين جعله إلى ثلاثة : الاختيار والصَّنعة واستدراك صوابٍ .

---

(١) فسَّرت « الترادف » بتطابق الكلمتين معنًى ودلالة ، لكيلا يدخل فيه ما إذا كان هنالك تقاربٌ بيْن المعنيين أو الدلالتين وإن عظم هذا التقارب .
هذا التقاربُ البالغ قد يقع بيْن كلمتين ، وحينذاك يكون مناط عناية البلاغي ما بيْن الكلمتين المتآخيتين معنًى أودلالة أو فيهما معًا ما بيْنهما من فروق خفيّة .
أنا لا أومن أن هنالك كلمتين متطابقتين معنًى ودلالة تطابقًا تامًّا ، بحيْث لا يكون أدنى فرق بينهما ، ومخرج هذا أنّهما إذا ما اختلفتا في صُورة المعنى (اللفظ) فلا محالة أنّ هذا التغاير في« الصورة » لا بدَّ أن يهدِي إلى فرق دفين ، لا تدركه إلا بصيرة نافذة .
وكلمة « ترادف » دالة على أنهما ليسا سواء لأن الترادف يقتضي أن يكون أحدهما أوّلاً والآخر تاليا ، فليس سواء في كلّ شيءٍ ، فالمصطلح هادٍ إلى أنّ ثَم فرقًا ما . وذلك هوطَلبة الخاصّة ومأمُّهم الأنْفس .

روى البُخَاري في كتاب « أحاديث الأنبياء » وكتاب « الفرائض » بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

« كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا ، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ . وَقَالَتِ الأُخْرَى : إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ . فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى ، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ـ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ـ فَأَخْبَرَتَاهُ فَقَالَ ائْتُونِى بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا . فَقَالَتِ الصُّغْرَى : لاَ تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ . هُوَ ابْنُهَا . فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى » .

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاللَّهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسِّكِّينِ قَطُّ إِلاَّ يَوْمَئِذٍ ، وَمَا كُنَّا نَقُولُ إِلاَّ الْمُدْيَةَ .

من سمى أداة الذبح « سكينًا » نظر إلى ما تفعله في الذبيح ، فهي تُسكن حركتَه ، أو من شأنها أن تفعلَ ذلك ، فهي سكين على زنة « فعّيل » أيْ تحدث السّكون لما يذبح بها .

ومن سماها « مدية » نظر إلى أنّها تجرى الدّم وتسيله . والعرب تسمّي الحوض الذي ليس له ما يمنع سيلان الماء منه ؛ المدِيّ على زنة « فعيل » والمَدِيُّ أَيضاً : جَدْوَلٌ صَغِيرٌ يَسِيلُ فِيهِ مَا هُرِيقَ مِنْ مَاءِ الْبِئْرِ .

فكلٌّ ينظرُ إلى فعلٍ من أفعاله ، وليس يخفى أن تسميتها « سكينا » مترتبٌ على تسميتها « مدية » فهي « مدية » تسيل الدّم فيسكن الذبيح فتكون سكينًا . وعلى هذا ليس كل ما يدمي سكينًا ، فقد يقع الإدماء ، ولا يقعُ بِها السكون (الموت) وكلّ ما يُسْكنُ بسبب الإدماء « سكين » . فافترقا .

العقلُ البلاغيّ ينظرُ إلى بلاغة اختيار كلمة « سكين » حين يقتضي السياقُ والقصد ما في هذه الكلمة من معنى السكون والإفضاء إلى الهلكة .

obeikandi.com

وينظرُ إلى بلاغة اختيارِ كلمة « مدية » حين يقتضي السّياق والقصدُ مافي كلمة « مدية » من معنى إسالة الدّم ـ فلا تصلح كلمة « مدية » في النّظر البلاغي « موضع كلمة « سكين » فلكلّ موضعه الذي هوأخصّ به ، وآنس .

جاء اختيارُ كلمةِ « سِكّين » دون « مدْيَة » فِي قول اللهِ تعالَى : ﴿ **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ (يوسف:٣١) وظاهِرُ الحال أنْ تكونَ كلمةُ « مُديَة » أوفقَ وآنَسَ ؛ لأنَّ امرأة العزيزِ ما أرادَتْ أن يُحدثْنَ بها ما يقعُ بِهِ سُكونُ الموتِ ، بلْ إسالةَ الدَّمِ .

والنَّظرُ المُتَثبِّتُ يرَى أُنْسَ السِّياق بكلمة « سِكّين » .

الإعرابُ بِكلمَةِ « سِكّين » يهدِي إلى أنّها لَم تؤتِ كلَّ واحدةٍ ما يُمكنُ به مُجرّد الإدماءِ ، بلْ آتَتْ كلَّ واحدَةٍ مِنهن ما من شأنِه أن يقعُ بِه الإدْماءُ الذي يُمكن أن يتحقّق بِه السّكون موتًا ، ولذا قال « قطَّعن » فلَو قال « مُدية » لما تآخَى مَع قوله « قطّعن » فما يقعُ به التَّقطيعُ لا القطعُ فَحسبُ هُوَ يَكونُ سِكّينًا .

لا يستَطيعُ أحدٌ لَه نصيبٌ من ذوق البيانِ أن يقُولَ إنّ كلمتيْنِ سَواءٌ فِي اقتضَاءِ السِّياقِ القصدَ إليْهما ، وأنَّ البليغَ لَهُ حرية الاختيارِ ، هذا لا يكونُ .

لم يكنْ البليغُ قطُّ ذا حرية مطلقةٍ في الاختيارِ بيْن البدائل .

البلبغُ خاضِعٌ لِسُلْطانِ السِّياقِ والقصد ، ، هما اللّذان يَحملانِه على أن يَختارَ الكلمَ ومنهاج الإبانة ، ومستوى الدلالة . . . . فيَخضَعُ لذلك خضُوع المُحبّ المتبتّل . وقِيمة البليغ فِي علمِه بِحالِ الكَلمِ ومناهجِ الإبانةِ وأحوال المخاطبين ومقتضِياتِ السّياق والقصد ، وفي قدرتِهِ علَى أنْ يستَجيبَ لتلك المقتضياتِ .

* * *

والشّيخُ دلنا على طريقته في ذوق الفروقَ التي ما بيْن الكلمتين المتقاربتين والتي تفسّر إحداهما بالأخرى . يهدينا إلى أنّه يرجع إلى الأصل الذي اشتقتْ منْه كلّ كلمةٍ ، فيتبصّر ما يكونُ فِي مشتقاتِ كلِّ أصلٍ من مَعانٍ حاضرةٍ فِي عظمِ هذه المشتقاتِ حضورُ معنى في عظم المشتقات من أصلٍ هادٍ إلى أن ذلك المعنى هو المعنى المركزيّ لهذه المادة .

وهذا قد اتخذه أعيانٌ من أهلِ العلم على نحو ما تراه من صَنيع أحمد ابن فارس الرّازي (ت : ٣٩٥هـ) عصري أبي هلال العسكري ، في كتابه الفريد « مقاييس اللغة » فقد كان مهمومًا في تبيين المعنى الأم الذي تدور عليه معاني المُفردات المشتقة من ذلك الأصل ، وقد كان للبقاعي (ت ٨٨٥هـ) عناية خاصة بهذا المذهب ، فأفسح له صفحات كثيرة في تفسِيره ، لأنَّ هذا ما يتواءَم مع « علم التناسب » الذي أخضعه برهان الدين البقاعِي لـ« علم المقاصد » ، فكان بذلك واضعًا لبنة عظيمة في متن العلم . وأضحى « علم التناسب » على يديه في شأن غيرِ الذي كان من قبلِه . وكذلك يَصْنعُ الرّجالُ .

المُهمّ هنا أن شيخَنا التفت إلى تبصّر ما يكون قائمًا من معنى المشتقات من أصلِ الكلمة ، فيرَى أنَّ في أصل كلِّ كلمةٍ مِن الكلمتين المتقاربتين معنًى ليس في أصل الأخرَى ، فيجعلُ ذلك منطلقه في تذوق كلّ في سياقها الذي جرت فيه .

نظر في الفعل « ألفى » فألفى في مشتقات أصله معنى « الألفة » فجعل ذلك حاضرًا في الإبانة بالفعل « ألفَى » فلا يقال « ألفيت كذا إلا إذا كان هذا فيه شوبُ الألفة بذلك » .

ووجد في الفعل « وجد » معنى في مشتقاتِ أصل هذا الفعل هو معنى « الميل » فجعل ذلك حاضرًا في الإبانة بالعقل « وجد » دون « ألفى » فلا يقال « وجدت » إلا إذا كان هنالك ميل إلى ذلك .

obeikandi.com

ذلك سبيل الشيخ في ذوق الفروق الدلالية بيْن الكلمات التي تتقارب في المعنى والدلالة .

ذاق الفعل (ألفى) في قول رسُول الله ﷺ (لا أُلفين أحدكم . . .) فرأى أنّ فيه تحذيراً بالغًا من أن يلفى المرء على ذلك الفعل لأنَّه لا يليقُ بعاقلٍ أن يفعله ، فكيف بأن يُؤلف وجوده عليْه . . ؟ فاصطفاء الفعل (ألفى) آنسُ بمقامِ الإبلاغِ في التَّحذيرِ من الاعتداء على المالِ العامّ . فالاعتداءُ عليْه أَشدَّ ضُرًّا على الأمة من الاعتداء على المال الخاصِّ ، فإذا ما كان الاعتداءُ على المال الخَاصِّ شُرِع فيه قطعُ اليدِ ، فإنَّ الاعتداءَ على المالِ العام لم يُشرعْ فيه حدٌّ معينٌ ، وتُرك أمرُ العقُوبة في الدّنيا لتقديرِ القاضِي العدلِ الخبير الحكيم البصير بحال الأمة ، الطّهور من التبعية لهوى السلطان ، والمتزكّي من أيّ شائبة تعيقه عنْ أن يقيم العدل على كل من نظر فِي أمرِه غير هيَّابٍ ولا وجلٍ ولا مجاملٍ ولا طامعٍ في غيرِ رضوانِ اللهِ تعالى ، ـ وأنَّى لنا بمثلِه ـ فله أن يبلغَ في تعزيره مبلغًا أشدَّ من قطع اليد ، وفقًا لما يقدِّره من الضُّرِّ الواقِع على الأمَّة ، ولِما يُقدّره مِن مَنعةِ الأمَّة بتغليظِ العُقوبةِ أوْ تخفيفِها ، فالأمرُ متروكٌ فيه لِمراعاةِ المَصْلَحةِ العامّةِ

وممَّا يجبُ أن نكون على ذكرٍ منه أنّ الاعتداءَ علَى المال الخاص يمكنُ لصَاحبِ المالِ المعتدَى عليْه أن يعفُو عَن المعتدِي احتسابًا ، أمَّا المال العام فليس لأحدٍ البتةَ أن يعفو عن المعتدِي ، ولوكان ولي الأمر العامّ ، فليس من حق ولي الأمرِالعام رئيسًا أو ملكًا ولا لمجلس النّواب أوأي مجلسٍ كان أن يتصالح مع المعتدِي على المال ، ولو وافق على ذلك كلُّ الشعب إلا واحدًا أيًّا كان ذلك الواحد من المواطنين صغيراً أو كبيراً عالمًا أو جاهلاً مسلمًا أو غير مسلم ، لأنّ له حقًّا في هذا المال العام . فإن تصالح ولي الأمر العام أو مجلس الشعب أو القضاء مع من اعتدى على هذا المال العام بغير موافقة جميع

الشعب بغير استثناء فهو المعتدى الظلوم الغشوم ، وهذا يسْقط عدالته ، ويوجب نهيه عن المنكر ، فإن انتهى فنعما ، وإلا وجب خلع ولايته بالحسنى .

الشَّريعةُ الإسلاميّة نصَّتْ على عُقوبة آثامٍ وجرائمَ ولمْ تنصَّ على عقوبة جرائِم أشدَّ منها ، وليس ذلِك إلا إطلاقًا ليد العدالة في أن تعملَ بما فيه صِيانة الأمّة في كل عصرٍ ومصرٍ وفق ما يراه القضاءُ الشَّريف الطَّهور .

* * *

وكذلك تجدُ الشَّيخ يتذوق الإعراب بالفعل (أدلجوا) من دون ما يُمكنُ أنْ يُحسب أنّه يُمكن أن يقُوم مقامه ما يقاربه من نحو (غَدوا) (ارتحلوا) في ما رواه مسلم في كتاب (الفضائل) من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ مَثَلِى وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِىَ اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَىَّ وَإِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالنَّجَاءَ . فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِى وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِى وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ».

تبصَّر الشيخُ مختارَ بيان النّبوّةِ ، فرأى في مُختاره معنًى لا يكون فيما تَركه من أقران الفعل « أدلج » ، رأى في هذا الفعلِ مِن الحثّ على أن يتخذَ المرءُ موقفًا خاصًّا حين يَعرفُ الحقّ ويتبيّنه ، لا يليق به إلاّ أن يكونَ عليْه .

يقول : « أفهمُ مِن هذا السَّطر : « فأطاع طائفةٌ من القومِ ، فأدلجوا ، فانطلقُوا » أنّها تقول لِي ولك : إذا عرفتَ الحقَّ فسارعْ إلى الطَّاعةِ والحركةِ السَّريعةِ في أول الليل وآخره المفهوم من كلمة « فأدلجوا » وانطلقْ مَع مَنْ معكَ مِمّن عرفَوا الحقَّ ، وسَارعُوا فِي نُصرتِه ، ودفع الباطلِ وحزبِه حتّى تتكونَ منكم الْعصبَةُ الّتي لا تزالُ قائمةً علَى الحقِّ تحمِيه حتَّى يأتيَ يوم القيامةِ .

وأفهمُ من كلمة «فأدلجوا» أنَّهم ارتحلوا عمّا كانوا عليْهِ من وثنيةٍ وجهلٍ وضلالٍ وباطلٍ إلى التوحيد . . . وباختصار «الإدلاج» يعني الخُروجَ من الظلمات إلى النور»[(١)]

دلنا الشّيخُ على أنَّ هذا الفعل لا يصلحُ مكانَه الفعلُ (بادروا) وفيه معنى الإسراعِ ؛ لأنّ في الإدلاج معنًى ليس في كلمةِ «بادروا» :

المبادرةُ قد تكون من حَسن إلى أحسنَ ، بل مِن أحسنَ إلى حسنٍ ، بل من حَسن إلى أسوأ . . . بينما «أدلجوا» لا تكونُ إلا من الأدنى إلى الأعلى من ظُلمة إلى نورٍ ؛ لأنَّ الإدلاج حركةٌ خاصَّة بالليل ، وليس فِي كلِّ زمان كالمبادرة في أيِّ وقتٍ . كذلك يتذوقُ الشيخ خصُوصية الفعل . «أدلجوا» . ويضيف الشّيْخُ توكيدًا وتبيينا : «ومن الجيدِّ البالغ أن رسول الله ﷺ قال : «فأدلَجوا» وما كان يُمكنُ أن يقُولَ «فاغتدوا» أي ساروا غدوةً ؛ لأنَّ المرادَ أنّه جاءَهم النّذِيرُ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وهم فِي ليلٍ مُظلمٍ ، فتحرَّكوا لِيخرجوا مِنْ هذا الليلِ .

وكلمةُ «فأدْلَجوا» تشبه كلمة «الليل» فِي قَولِه عليه السّلامُ : «لَيَدْخلنَّ هذا الدين ما دخلَ عليْه الليلُ» أي ظلمات الجهلِ والتخلفِ ، وما يُمكنُ أن يقول ليدخلنّ هذا الدّين ما دخل عليْهِ النهار»

روى الطبراني في المعجم الكبير بسنده عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الدِّينُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ ، حَتَّى يَدْخُلَ بَيْتَ الْمَدَرِ ، وَبَيْتَ الْوَبَرِ ، حَتَّى يُعِزَّ اللهُ بِهِ الإِسْلامَ ، وَيُذِلَّ الْكُفَّارَ»

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحيحِ مسلم : ٦٢٨/٢، ٦٢٩

obeikandi.com

قَالَ تَمِيمٌ : « قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي قَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ ، وَالشَّرَفُ ، وَالْعِزُّ ، وَأَصَابَ مَنْ ثَبَتَ مِنْهُمْ عَلَى الْكُفْرِ الذُّلُّ ، وَالصَّغَارُ ، وَالْجِزْيَةُ » (حديث رقم ١٢٨٠)

يقُول الرافعي معلقا : « في الحديث الشريف : « ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل » . وكأن العبارة نص على أن الإسلام يعم حين تظلم الدنيا ظلامها الشعري . . . إذا طمست الإنسانية بلذاتها ، وأظلمت آفاقها الروحانية ؛ فيجيء الإسلام في قوة أخلاقه كشباب الفجر ، يبعث حياة النور الإنساني بعثًا جديدًا . وهذا هو رأينا في مستقبل الإسلام : لا بد من انحلال أوربا وأمريكا ، كما يصفر النهار ، ثم يختلط ، ثم يظلم ، ثم تطلب الطبيعة نورها الحي من بعد »[١].

يريد الشيخ أنّ كلمة « النهار » ليس فيها ما يفيد الانتقال من ظلمة إلى نور ، كالتي في كلمة « الليل » غير أن حديث : ليبلغن هذا الدين ما يلبغ الليل . القصدُ الرَّئيس منه هو عُمومُ الرسالة وبلوغها كلّ مكانٍ ، فذلك هو المسوق له الكلام سوقًا رئيسًا ، وهو ما يُسمّى عند علماء أصول الفقه الحنفي بـ« دلالة العبارة» ولا يمنع هذا أن يُفهم بطريق « دلالة الإشارة» ما ذهب إلَيْه شيخنا .

قد تقُولُ : ما سيق له الحديث سوقًا أصليا لا يمنع أن يقال : « ما بلغ النهار » لأن هذا المعنى الرئيس متحقق بهذه العبارة .

قلتْ : إنْ الذَّهابَ إلى ما يكونُ عطاؤه أوفرَ وفسطاطه أوسعَ وأرحبَ ، وغيثُه أسكبَ وأطيبَ هو الأوجبُ في منهاجِ الإبانةِ إفهامًا .

---

(١) من وحي القلم : تأليف مصطفَى صادق الرافعي .. نشرالهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٣هـ . ٨/٣

لو قال (النهار) وحده لكان عطاؤه مقصُوراً على ما سِيق له البيان سوقًا أصليًّا ، ولا يهدي إليْنا ما يُهديه البيان بكلمة (الليل) والأليَقُ بمقامِ النّبوّةِ أن يكونَ عطاؤه أوفرَ .

وفي مسند أحمد ، والمستدرك للحاكم عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِىِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ وَذُلاًّ يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ » . وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِىُّ يَقُولُ قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِى أَهْلِ بَيْتِى لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِراً الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ .

فهذه الرِّواية جمعتْ بيْن الليل والنهار ، وهذا يشير إلى مجالين :

الانتقال من ظلمةٍ إلى نور (الليل) .

والانتقال من نورٍ إلى ما هو أكثر نوراً منه (النهار) .

فليس أوّل النَّهارِ أوْ آخره كوسطِه إضاءة ودفْء ، فهذه الرّواية أشارتْ إلى أَن الإِسلامَ سيحلُّ في كلِّ مكان ، وسيحدثُ تغيراً إلى الحَسن مهْما كان شأنُ المنتقلِ منه . ممَّا يعنِي أنَّ كلَّ أهلِ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ وثقافةٍ وحالٍ وشأنٍ هُم أحوجُ إلى هذا الدِّين ، فليس هنالك أحدٌ يُمكن أنْ يكونَ فِي غناءٍ عنه . حتى وإنْ كان ما حوله وما في داخله مضيئًا ، فهو بحاجة إلى نورِ هذا الدِّين . كحاجةِ مَن كان ما حوله ، وما في داخله ظُلمة حالكةٌ .

وإذا ما كان قول الشيخ : « ومن الجيّد البالغ » قد يفهم منه العَجِلُ أنه نعت بيان النبوة بأنه (جيد) وهو نعت هنالك ما فوقَه الأليق ببيانِ النُّبوَّةِ فإن الأمرَ عندي على غيرِ ذلك .

لو تبصّر هذا العَجلُ لعلم أن كلمة « جيّد» لا تعنِي هنا الجَودة التي هي الخلو من المعابة ، بل تعني فوق هذا الجُود والإحسانِ ، يقال فلان جيّد أيْ

obeikandi.com

جوادٌ ، فقولـه « الجيّد البـالـغ » أي الـذي يجـودُ عليك بالمعـانـي ، فيبلغُ بك ما يحسنُ بك أن تبلغه إن أنتَ أحسنت التلقّي ، وانصرفت إليه وأعرضتَ عمّـا سِواه .

ويلفتنا قوله : « وما كان يُمكنُ أن يقُولَ « فاغتـدوا » » إلى أن البليـغ لـيس حرًّا في أن يختار بيْن البدائل اختياراً مُطلقًا بل السِّياقُ والمقامُ والقصـدُ يحملـه إلى وجهٍ لا سبيلَ له إلى غيرِه . فلو أنَّـك رفعت من بيانِه كلمةً ووضعت مكانها أخرى تقاربها ، لاستوحش السّياق من الأخرى ما أقيمت فيه ، واستوحشت هي مما أقيمت فيه وهذا يستشعره الذوق الصفاءُ ، وبهذا يستطيع أصـحاب اللقانيـة والفراسة البيانية أن يتبينوا من خلال « المتن » مـدى صِحة انتسـابِ البيـان إلى رسُول الله ﷺ ، فيكون منهم بذلك عونٌ لأعيان الأئمة في علم « السند » . فعلم البلاغةِ العربي يُمكنه أن يكون عونًا لعلم الحـديثِ سندًا ومتنًـا إنْ قـام لـذلك رجـالٌ عُصِمُوا بإيمـانهم وإخلاصِـهم وزهـدهم مِـن فتنـة المَسـيح الـدّجال و« بلاطجته » وبغيِهمِ وفجورِهم في هذا الزَّمان الهَوان .

ألا ترى أنَّ النُّقاد الكبار يستطيعون أن يُميّزوا بيْن ما هو من مذهب الشاعر ، وما أقحم عليه ، أو استلبه من غيرِه على نحو ما هو معلـوم عنـد الناشئة مـن طلاب العلم بالعربية ما كان من شأن الفـرزدق مـع ذي الرمـة ، حـين اسـترفد ذوالرمة جريرًا فأرفده بأبيات يهجو بها هشام بـن قـيس المرئـيّ ، فلمـا سمـع الفرزدق قصيدة ذي الرمة علم الأبيات التي خرجت من نفس جرير ، فقال له : والله ، لقد علكهن من هو أشد لحيين منك ، هذا شعر ابن المراغة(١) .

---

(١) ينظر : بيان إعجاز القرآن ، تأليف أبي سُليمان حَمد الخطابي(م . س) ص ٢٥ أو : الأمالي ، تأليف : أبي علي القالي ، إسماعيل بن القاسم (ت : ٣٥٦هـ) عُني بِه محمدُ عبد الجواد الأصمعيّ . نشر : دار الكتب المصرية . ط(٢) عام : ١٣٤٤ هـ ، ١٤١/٢

وانظـر كتـابي : قطـرات النـدى : معـالم الطريـق إلى فقـه المعنـى الشعري في سياق القصيدة . ط١، عام١٤٢٢هـ مطبعة النعمان الحديثة . / شبين الكوم . مصر ص ٥٣

إذا كان هذا في شأن الشعر ، فكيف بشأن بيان النبوة الذي يبصر أهل الحكمة النور فيه ، ويسْتشعرون فيه جلال النّبوة والرحمة المحمديّة . ؟

ومن بعدِ أن يتذوق الشَّيخ ما في قول النبيّ ﷺ « فأدلجوا ، فانطلقوا على مهلتهم » يعقبُ قائلا : « وهكذا تجد الكلمات محسُوبةً بِحسابٍ دقيق ؛ لأنّه عليه السلام يُبلّغ دينًا ، والدين عقيدةً وشريعة وسلوكٌ ، فإذا لم يكن البلاغُ غاية في الدقةِ اضطرب علينا أمرُ اليقين وأمرُ السلوك ، ولم يكنْ منْ هذا [أي الاضطراب] شيْءٌ ؛ لدقة بلاغه عليْه السّلامُ ودقّة لغتِه ودقة بلاغتِه .

ولا تزالُ الأمة على المحجّةِ البيضَاءِ ليلُها كنهارِها ، وهِي اليومَ وغدًا ، وإلى أن تقُوم الساعةُ كيوم كان فِيها صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

وأعجبُ جدًّا من أن يكونَ هذا الضبطُ الرائعُ عفو الخاطرِ ، وعفو البديهةِ ، وليس ثَمرةَ مراجعةٍ ورويّةٍ ، ويذهبُ العجبُ حين أذكرُ أنّه توفيق اللهِ الذي لا يزالُ يُصِيبُ كثيرًا مِن علماءِ الأمّةِ الّذين لَهم نصيبٌ مِن ميراثِ النبوة »[1] .

الشَّيخُ يحملنا بهذا إلى أنّ نؤمن أن تبليغ الدِّين لا يكفِي فيه أن يكون صَاحبه محيطًا بدقائقِ العلم جامعًا لها في صدره ، بلْ عليه أن يكونَ اجتهادُه في هذا يعْدلُه اجتهادُه في امتلاك أدواتِ إيصالِ هذه الدَّعوةِ إلى قلوب العبادِ فِي أحسنِ صورةٍ مِن اللفظ ، ﴿ **وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا** ﴾ (النساء:٦٣) ومِن وجوه معناه : وقل لهم قولاً بليغًا في أنفسِهم ، فهو على التقديم والتأخير أيْ قلْ لهم قولا يتوغّل في نفوسهم ليقيمَهم في سياقِ الصِّراع النَّفسيّ بين الحق الذي حمله بيانك إليها ، وباطلهم الذي مَردوا عليه . وهو

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٦٣٠

صورة من صور الجهاد في سبيل الله تعالى : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ »[1].

وإتقان إبلاغ كلمة الحق في نفوسِ أهل الباطل ليشتعل الصراع بينهما في نفوسِهم ، هو من فرائض العلماءِ والدُّعاة ، وطلابِ العلم . وهذا يستوجبُ أن يكونَ أهلُ الدَّعوةِ أقدرَ على المُجاهدة بالكلمةِ الحقِّ تحقيقًا ، وتوثيقًا ، وفهمًا ، وإفهامًا . فمن قضى من جُهده وعمره ليتعلم الجهاد بالكلمة الحق ، وليقتدرَ على أن ينفذَها في النُّفوسِ لتنيرَها ولتزهق ما فيها من الباطلِ والشَّر هو بهذا مِن الغزاة المجاهدين في سبيل الله تعالى .

رَوَى مسلم في كتاب « الإمارة » عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ ».

و« مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غزَا » . (متفق عليه)

وإذا ما كان من أصُولِ القِرى والجود عند أهله أنّه ليس المُهمّ وحده أن تبالغ في إعداد القرى لضيفك ، بل الأهمّ معه أن تحسن تقديمه إليه وإغراءه بأن يَطعم ، وأن يتضلع من قراك ، فإنَّ الاعتناءُ بعلم التبليغ الفاعل قرينُ

---

(١) رواه أبو دواد والنسائي في كتاب « الجهاد » من سننهما ، وأحمد في مسنده ، والدَّارمي في سننه والحاكمُ في المستدرك ، والبيهقيُّ في السّنن الصُغرى والكبرى ، وابن حبان في صَحيحه ، (وصَحّحه الألباني)

ذِكري أكثر من مصدر للحديث حين لا يكون في أحد الصحيحين : للبخاري ومسلم ليس من قبيل التكاثر ، معاذ الله تعالى أن يكون .

إنما هو إبلاغٌ في الدّلالة على أنّ جمهرة من أهل العلم بالحديث على وثاقة نسبته إلى سيّدنا رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، وهذا من خدمة العلم وطلابِه ، وكذلك ليتيسر لمن لم يكن عنده واحد من هذه المصادرإن اكتفيت به أن يجده في غيرِه . (يسروا ولا تعسروا) (البخاري : العلم ، والأدب)

الاعتناء بعلم ما يبلّغ ، لأنّ علم التبليغ والإيصال والتوطين والتفعيل في القلوب هو الذي يمنح ما يُبلغ الحياة والفاعلية .

التّبليغُ الفتيّ هو رُوح العلم ، وعالمٌ بلا لِسانٍ فتيٍّ حكيمٍ لا ينتفعُ به الانتفاع الأتمَّ

عَجِبْتُ لِمَنْ لَهُ قَدٌّ ، وحَدٌّ ... وَيَنْبُو نَبْوَةَ القَضِمِ الكَهَامِ
وَمَنْ يَجِدُ الطَّرِيقَ إلى المَعَالِي ... فَلا يَذَرُ المَطِيَّ بِلا سَنَامِ
وَلَمْ أَرَ في عُيوبِ النَّاسِ شَيْئاً ... كَنَقْصِ القادِرِينَ على التَّمامِ .

الشَّيخُ مُحْتفٍ بهذا لأنا قد ابتلينا في زماننا هذا بمن قاموا لتبليغ الدَّعوة ، وإرشاد العباد ، وليس لهم من اللسان ما يعدل ما لهم من العلم ، فلم ينتفع بهم الناس . فقد بات غير قليلٍ ممن ينسبون إلى أهل العلم لا يتكلمون وهم على منابرهم ، وفي منتدياتهم ، وقاعات تدريسهم إلا كمثل ما يتكلم الدَّهماء في الأسواق ، وهم بذلك لا يدركون أنهم يبطلون أعمالهم ، وأنّهم بذلك كالرَّاغبين فيما نهى الله تعالى عنه : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا** ﴾ (النحل:٩٢).

﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓا۟ أَعۡمَـٰلَكُمۡ** ﴾ (محمد:٣٣) (١)

من هنا كانت عناية شيْخنا ببان منهاج النبوة في الإبانة إفهامًا ، ومن هنا حرصت على أن أحمل إليك كلامه في هذا .

---

(١) إذا كان كل عاقل هو الحريص على أن يصنعَ الخير وأن يبني المجد ، فهو الأولى به أن يكون الأحرصَ علَى أن يحمي صنيعه وما بنى مما يبطله .
وعواملُ إبطال الأعمال الصالحة جد كثيرة ، متنوعة ، وحرى بأهل العلم أنْ يكونوا أحرصَ على بيان تلك العوامل للنَّاسِ ، ولا سيما ما يتعلق بالأرزاق الحسية والمعنوية ، وما يتعلق بحقوق العباد ومناصَرة الزورِ وأهلِه فِي أي مجالٍ من مجالات الحياة ، ولا سيما المجالات السياسية ذات الأثر العام النافذ .

obeikandl.com

أراد الشيخ منا أن نحيي سنة سيّدنا رسول الله ﷺ في منهاج الإبانةِ عَن المعاني ، منهاج التَّمكن والإتقانِ الّذي يُبرز العليّ المُدهش من البيان دقةً ونفاذًا في صُورة الفطري الذي لا يحتشدُ له . وهذا مبلغ لا يبلغُه الدّاعية إلا إذا بالغ في الاجتهاد تعلماً وتدربًا وممارسةً .

هذه السُّنة من السنن الموات ، على الرغم من أنها أعظم أثرًا في الأمّة من سنن يتمسك بها غير قليل هي في نفسِها جليلة الأثر في صاحبها ، ولكن غيرها أعظم نفعًا للأمة ولصاحبها ، فهي الأولى بالتمسك ، وهي المقدمة على غيرِها .

ويسلك الشَّيخُ مسلكًا يعالجُ به ما قد يتسلل إلى بعضِ النّفوس : يبرز لنا أنَّ هذا الَّذي كان من النبيِّ ﷺ كان فطرة ، وكان توفيقًا من الله تعالى ، وهنا قد يحتج المتهالكون بأنه نبيٌ وليسوا بأنبياء ، فإذا بالشيخ يُبين أنَّ للعلماء الذين هم ورثة الأنبياء نصيبًا من التوفيق الذي كان لمن هم ورثته ، إذا ما عَملوا على أن يكونوا بحقٍ أهلاً للوراثةِ ﷺ ، فإن اللهَ تعالى لن يَحرمَهم ممَّا منحه لرسُوله ﷺ من التوفيق والتَّسديد . وفي هذا حملٌ لأهل العلم والدَّعوة على الاجتهاد في امتلاك مهارة دقة البيان وفتوته ، وملاحته في النفوس .

ولا يتوقف الشَّيخُ عن حملنا إلى أن نحمِل من عطاءِ قول النّبيّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « فأدْلَجوا ، فَانطلقُوا على مهلتهم » فيستأنف لفتنا إلى ما فيه قائلاً : « هذا يدعونا إلى إعادةِ مراجعةِ هذه الكلماتِ الثلاثِ التي هِي » « فأدْلَجوا ، فَانطلقُوا على مهلتهم » لأنّ هذا وصفٌ لأتباعِه عَلَيْهِ الصّلاة والسّلامُ ، وأنَّ الإدلاجَ الَّذي هو خروجٌ من الظلمةِ شأنٌ مِنْ شؤونِ المتبعينَ لِسُنّتِهِ عَلَيْهِ الصّلاة والسّلامُ ، هم قومٌ مُرتحلون مِنْ الْجهلِ إلى العلمِ ، مِن كلّ ما يشْبِه الظُّلمةَ فِي حياةِ البشرِ إلى كلّ ما هو نُورٌ وضِياءٌ . . . .

وكلمة « الإدلاج » فِي وصف أتباعِه عليْه السلام تفتحُ أبوابًا من المعاني لا حدودَ لها ، ومنْ وراءِ هذا « الإدلاجِ » الَّذي لا يقرُّ الذين هو (إي الإدلاج)

شأنهم علَى شَيْءٍ يُعارضُ الحياة الأكرمَ والأفضلَ وفرةُ النَشَاط وصدقٌ ، وحزمٌ ، وعزمٌ تشيرُ إليْه كلمة « فانطلقوا »

ومن وراء هذ الانطلاقِ عُقُولٌ تفكر وتخطّط على رويةٍ وأناةٍ ، وكمَا ينهَضُونَ إلَى الصّلاةِ والزكاةِ والحجّ ينهضُونَ إلى مجالسِ العلم . . . . .

هذا شيءٌ مَّا أراه فِي وصفِه عليه السلام لأتباعه » [١]

كأنّي بالشيخ يقولُ لنا إذا لم تكن كذلك فلست من أتباعه حقًّا ، وإنما أنت من أتباعه اسمًا ورسمًا ، وقد جاء في بيان النّبوة : « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » (مسلم : كتاب البِرّ والصلة والأدب . باب : تحريم ظلم المسلم وخذله)

كذلك تَرى حركـةَ الشّيْخِ فِـي تذوقِـه ، وفِـي إيضَـاح المعـانِي فِـي قَلْبِـهِ ، واسْتخراجِ مكنوزها ، وكلّ هذا هوعندِي أقربُ إلى المواهبِ من المكاسِب .

* * *

ومِمّا يحسن أن ألتفت إليه إيراد مسلم هذا الحديث : « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ . . . . » (في باب تحريم ظلم المسلم وخذله ، ففي هذا الإيرادِ إعرابٌ عن أنّ على المسلم أن لا يتخذَ ممَّا ترَى عينه مـن صُـورة أخيـه منفـذًا إلى أن يتخذَ منه موقفًا ، ولو كانَ موقفًا جوانيا نفسيًّا ، يرَى من هيئته ما قد يرغبه فيه أو عَنه ، بل عليْه أن يتخذَ موقفه من أمرين رئيسين : أن يحسِن الظـنّ بـه أولاً فهذا حقه عليْه ، ثم يتبصر حالَه ليرى أيبقَى علـى إحسـانِ الظـن بِـه أو يتخـذ موقفًا آخر يستمده من نفاذ بصيرتِه فِي ما يمارسُه أخـوه مـن أعمـالٍ هـو لهـا مصاحب ، فذلك أقربُ إلى العدل . فربَّ رجلٍ يفخُم في عينك ، وهوعنـد الله

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٣٣/٢، ٦٣٤

تعالى لا يَسْوَى جناح بعوضة ، وربّ رجلٍ تتقحمُه العين هو صَناع خيرٍ وناشره ، ونصير حقٍّ بالحقّ[١] .

روى الترّمذي في كتاب «المناقب» من جامعه بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ حَسَنٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

وليس في هذا دعوةٌ إلى أنْ يهمل المرء حسن هيئته ما أمكنه ذلك ، ولم يشغله عن حق ينصُره أو خيرٍ ينشره ، فإن شغله الاعتناء بهيئته عن أي منهما كان الاعتناء بهيئته مرغوبًا عنه . حتى يجد له وقتًا .

يقُول الله سُبْحانَه وبِحمدِه ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (الأعراف:٣١)

وهذه الآيةُ تفهمُ في صحبةِ قولِ الله جَلَّ جَلالُه : ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٢)

تبصر قوله (زينة الله) وما في هذه الإضافة من محاجزة كلمة (زينة) من أن تستصحب عجبًا وخيلاء ، وأن يتفهم أيضًا في صُحبة ما رواه البخاري في كتاب «التيمم» و «الصلاة» من صَحيحِهِ بِسندِهِ عَنْ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِى نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِى أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ

(١) كلمة (يَسْوى) بِسكون السين وفتح الواو ،هي من معجم الإمام الشافعي،فهو يستعملها مع كلمة (يُساوِى) فأحببت إحياءها محبة في الشافعيّ خلقًا وعقلاً ولسانًا .

فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِى ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِىُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ».

فالأرض كلها مسجد فيه يأخذ المسلم زينته الخاشعة لله تعالى حيثُ حلّ مستصحبًا شرف عبوديته لله تعالى وأخوته النّاسَ أجمعين

* * *

ومما تلبث عنده الشَّيخُ يتذوقُه في هذا الحديث أيضًا التَّذكير والتَّأنيث في الأفعال ، كما في قول رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ « فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ».

جاء فعل الطاعة مذكرًا ، وفعل التَّكذيب مؤنثًا ، وجاءَ الفاعل « طائفة » مؤنثًا فما وراءَ العدول عن التَّذكيرِ أوَّلاً ، والعُدول إلى التأنيث ثانِيًا . ؟ ومن البيِّن أنَّ العدولَ تذكيرًا وتأنيثًا هو بابٌ من أبواب الحَمل على المَعنى الَّذي هو ممّا يُعرف بـ« شجاعة العربية »(١)

يبصِرُ الشّيخُ في تذكير الفعل (أطاع) والفاعلُ مؤنّثٌ مجازيٌّ : « طائفة » ما في التذكير من معنَى الرّشد وكمال العقلِ وكمال المَسؤوليةِ وكمال القوامة ، وهؤلاء هم الحكماء ، وهم الكرماءُ ، وهم العقلاءُ الذين لا تلعبُ بهم الأهواءُ والعواطفُ .

ويبصرُ في تأنيثِ الفعلِ « كذّب » ما في الكَذبِ مِن نقصِ وعيِهم بما جاءَ به النَّذيرُ العُريان ، وهُو يُشيرُ إلى أنَّ شيوخَ العربيَّةِ قد أشاروا إلى ما في التأنيثِ مِن لينٍ ورخاوةٍ ، فالتأنيثُ هنا أَفْهمَنا أنَّ هذه الطائفةَ لَم تقدحْ عقولَها ما سمعتْ قدحَ العقلاءِ الحكماءِ للخيرِ(٢).

---

(١) الخصائص . تأليف أبي الفتح عثمان بن جنّي (ت : ٣٩٢هـ) تحقيق محمد على النجار . نشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة سنة ١٩٩٩م ، ١٣/٢

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٣١/٢

تأنيث الفعل وتذكيره ليس مرده إلى نوع الفاعل فحسب ، بل مرده كذلك إِلى طبيعة الفعل حين يكون الفاعل غير واجبٍ تذكير الفعل معه . فالمتكلم ، إذَا ما أفسحت له العربية أن يؤنِّثَ الفعلَ ويُذكرَه ، فما هذا الإذنُ منها بالذي يمنحُه الحريَّة المُطلقة في الاختيار بلْ من وراءِ ذلك ضابطٌ هو ما يتلاءمُ مَع حالِ الفعلِ ، ومعَ حالِ القصدِ ، وهذا هو مأمّ العقلِ البلاغيِّ ومَسْعاه .

وفي القرآن جاء قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(المائدة: ٦٤)

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات: ١٤)

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٠٥)

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ (هود: ٩٤)

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف: ٣٠)

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾

(هود: ٦٧)

التأنيث في ما جاء فيه كان فيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الفعلَ من الضَّعفِ والبُعدِ عن الحقِّ ما فيه .

والتَّذكيرُ جاء للدَّلالة على قوَّة الحدثِ ونفاذِه ، فالصَّيحةُ في شأن قوم صالح جاء أخذها مذكرًا تناسبًا مع حال ثمودَ ، فهم قومٌ أشداءُ جابوا الصَّخر بالواد ، ونحتوا من الجبال بيوتا ، وجاء مؤنثًا مع قوم شعيب من أنهم تجارٌ ليسوا في قوة ثمود فكانت الصيحة التي أهلكتهم أقل قوة من التي أهلكت ثمود ، فدل عَلى القوة بِتذكير فعل الأخذ ودلَّ على ضعف الصيحة بتأنيث الفعل .

ومن هذا « قالت الأعراب » لأنه قول كذب ، و« قالت اليهود » لأنَّه قول ضال ، أما « قال نسوة » فإنّه قول نافذ في النّاس منتشر فيهم ، صانع لفتنة بينهم ، فدل على هذا بتذكير فعل القول .

ومن هذا تدرك الفرق بين قولنا : طلعت الشمسُ وطلع الشمس ، نقول الأول إذا أردنا الإعراب عَن أنَّ حرارة الشمس ليْست محرقة ، ونقول (طلع) إذا ماأردنا أن نشير إلى أنَّ حرارتها بالغة الشدة .

وهكذا ننظر حينًا إلى ذات الفعل وحينا إلى أثرِه ، وحينا إلى حال إيجاده سهولة وصعوبة فنبني الفعل على التذكير إن كان في نفسِه حقًّا أو كان أثره نافذًا عميقًا ، أو كان إيجاده عصيًّا ، ونبني الفعل على التأنيثِ إذا ما كان الفعل في نفسه باطلاً أو كان تأثيره ضعيفًا أو كان إيجاده ميسورًا على فاعلِه ، فأنت في كلٍّ نازلٌ على ما يقضِي بِه الحال ، وهو يدلّك على أن علم البلاغة العربيّ ليْس علمًا معياريًّا ، بل هو علمٌ سياقيّ مقاصدي .

* * *

ممَّا ترى « الذَّوق » الرَّشيد عند شَيْخنا ظاهرَ الحضور ، وذكاءَ قلبِه متوقّدًا ما تراه في تدبره ما رواه مسلم في كتاب الطهارة من حديث نُعَيْم بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُجْمِرِ قَالَ رَأَيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَتَوَضَّأُ ، فَغسَلَ وَجْهَهُ ، فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ غسَلَ يدَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى الْعَضُدِ ، ثُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى الْعَضُدِ ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى السَّاقِ ، ثُمَّ غسَلَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى السَّاقِ ، ثُمَّ قَالَ : هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ .

وَقَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَنْتُمُ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ ، فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ » .

يعمدُ شَيْخُنا إلى أنْ يُقيمَ شيئًا مكان شيْءٍ جاء به البيانُ النَّبويّ لِيريك فرقَ ما بين ما عليه البيانُ النّبوّي وما يُحسبُ أن غيرَه أولَى وأمكن .

يتبصّر (ثم) في قول سيّدنا « نعيم » : « ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى » ، « ثُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَى » ، « ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى » ، « ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى » وظاهر الأمر أن يؤتى بـ« الفاء » لوجوب التعاقب في غسل الأعضاء .

يقُول الشيخ : « وقَفتُ أيضًا عندَ تِكرارِ كلمةِ « ثمّ » ولَمْ أجدْ لَها المَغزَى الذي هوظاهرٌ فِي تكرارِ « أشرع » ، ووجدتُها وقعتْ فِي مفاصلِ ترتيبِ غسل الأعضاءِ ، وترتيبِ غسلِ الأعضاء على التَّوالي ، وليس على التَّراخِي ، وهذا يَجعلُ « الفاء » أولَى بالموقع منها[1] ، فوضعتُ « الفاء » مكانها ، ثمَّ حاولتُ أن أتذوقَ الكلامَ ، فوجدتُ البيان قدْ نبا بِهذه الفاءِ التِي يظهرُ لِي أنـَّها الأوْلَى بالموقِع ، ثُم بدا لِي أنّ (ثُمَّ) جاءت لا لِتدعَ مسافةً زمانيةً بيْن غسلِ الأعضاءِ ، وإنّما لِتنتجَ مدداً نفسيًّا لإشباعِ الإسباغِ فِي الذي قبلَها »[2] .

---

(١) شيْخنا تلقَى المذهب المالكي تعلّمًا في الأزهر ، والمذهبُ المالكيّ يجعل « الموالاة » من الفرائض السبع لصحة الوضوء ، وتحقق الموالاة بأن يغسل المتوضئُ العضو . قبل أن يجف العضو الذي قبله بحيث لا يصبر مدة يجف فيها الأول عند اعتدال المكان والزمان والمزاج .

ينظر : الذخيرة . تأليف : شهاب الدين القرافي : أبي العباس أحمد بن إدريس ابن عبد الرحمن القرافي (ت : ٦٨٤هـ) تحقيق محمد حجي ، وآخرَين . ط(١) عام ١٩٩٤م ، نشر : دار الغرب الإسلامي ـ بيروت . : ٢٧٠/١

أو « الفقه على المذاهب الأربعة » تأليف : عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري (ت : ١٣٦٠هـ) ط(٢) ١٤٢٤هـ ، نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٥٦/١

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٣٠/١

تبصّرْ قولَه : « فوضعتُ « الفاء » مكانها ، ثمَّ حاولتُ أن أتذوقَ الكلامَ » تجده يرسُم لك منهجًا في تلقّى عطاءات البيان ، تقيم ما يُمكن عربية أن يكون مقام ما أَوْجَبَهُ السياقُ والقصد فجاء عليْه البيانُ لترَى فرقَ ما بيْن العطاءين ، لا ريْب أنك لن ترى مناط الفرقِ الصّحة اللّغويّة في أحدهما دون الآخر ، فلسنا هنا في التحرُّز منَ اللحن وزيغ الإعراب ، أو معاظلةٍ أو تعقيد لفظي ، كلا » وإنّما نحن في أمورٍ تُدرَك بالفِكَر اللطيفةِ ، ودقائقَ يُوصلُ إليها بثاقِب الفهمِ ، فليس دركُ صوابٍ دركًا فيما نحنُ فيه حتَّى يَشْرُفَ موضعُه ، ويَصعُبَ الوصولُ إِليه ، وكذلك لا يكونُ تَرْكُ خطأٍ تَرْكاً حتى يُحتاجَ في التحفُّظِ منه إِلى لُطْف نظَرٍ ، وفَضْل رويّةٍ ، وقوَّةِ ذهنٍ ، وشدّةِ تيقظٍ .

وهذا بابٌ يَنبغِي أَن تُراعِيَه وأن تُعْنى به ، حتَّى إذا وازنْتَ بيْنَ كلامٍ وكلامٍ ودريْتَ كيفَ تَصْنعُ ، فضمَمْتَ إِلى كلّ شَكْلٍ شكْلَه ، وقابلْته بما هُو نظيرٌ له ، وميَّزْتَ ما الصَّنعةُ منه في لفظِه ، ممَّا هُو منه في نظمِه »[1] .

أبرز لنا الشَّيخُ أثر السياقِ في صرف (ثم) عن ما وضعت له من الدلالة على « التراخي » الزّماني والرتبي ، لتحمل معنى آخر اقتضاه السياق هو الإسباغ في صناعة الفعل (الغسل) وكأنَّ ما في الإسباغ من تمهلٍ يَقْتضِيه الوفاء بحق الفعل، ما يتلاحظ مع « التراخي » الذي هو أصلُ موضوع « ثُمّ » فهي لم تَنفصم عن « التَّراخي » انفصامًا كاملاً ، ولكنّها حملتْ منه نوعًا آخر غيرَ الذي عهد حملها له ، وهكذا يهدي إلينا السّياق اتساعًا في مجالات فاعلية « الكلم » ، ومِثْلُ هذا هُو ثَمرَةُ التّذَوّقِ وذَكاءِ القلبِ معًا .

* * *

وممّا أبصرته من ذكاء قلبه وإنضاجه المعرفة إنضاجًا قام أثره فيَّ وأنا أتلقّى ما رقنت يمينه ما قاله في تبصره ما رواه الإمام مسلم في كتاب « التوبة »

---

(١) دلائل الإعجاز . ص ٩٨ فقرة ٨٦

من صحيحه بسنده عند عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول :

« لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِى أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَنَامَ ، فَاسْتَيْقَظَ ، وَقَدْ ذَهَبَتْ ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ، ثُمَّ قَالَ : « أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى الَّذِى كُنْتُ فِيهِ ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ » فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ ، فَاسْتَيْقَظَ ، وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ » .

ينظرُ في قول رسول الله ﷺ : « فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ثُمَّ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى الَّذِى كُنْتُ فِيهِ » فيرَى ما في استيقاظ الرّجل وإدراكه ذهابَ راحلتِه إعرابًا عنْ حال التَّائب الّذي يستيقظُ من غفلته ، فيجدُ دنياه وأخراه قد ذهبا ، يقول : أنا أفهمُ من هذا ، ـ ولك أنْ تقرّ فهمي أو لا تقرّه ـ أنّه لم يدرك أنَّ الرّاحلة الّتي عليها زاده ومزادَه فِي رحلتِه سَواء كانتْ الرّحلة الحقِيقية المعروفةَ أوْ فِي رحلتِهِ الّتي هِي رحلةُ الحياةِ بتقلباتِها لَمْ يُدركْ أنَّ الرّاحِلةَ ذَهبَتْ إلا لَمَّا استَيْقظَ ، وأنّه لَمَّا كان نائمًا كانَ لايدري ....[1]

ولا أستطيعُ أنْ أدفعَ عَنْ نفسِي ، وأنا أقرأُ قولَه عليْه السّلامُ : « وقد ذهَبَتْ فطلبها حتّى أدركه العطشُ »... معنًى أنّه لمَّا ذهبتْ راحلتُه ، وعاشَ فِي مَهْمَهٍ ، لا يدرِي فِيه طريقَ الهُدَى ، واستنفرتْ نفسُهُ كلَّ طاقاتِ فُجورها كانَ ، وهو فِي هذه المَعمَعةِ من الضلالِ [والهذل] واللعب والزينةِ والتفاخرِ يجد صَوتًا فِي أعماقِهِ يبحثُ عن الزادِ والمزادِ ، ويبْحثُ عن الرَّاحلةِ التي ترحلُ بِه إلى موطن الأمن والأمان ، وأنَّ الشَّرف والشَّرفينِ والثَّلاثة كلّ ذلك كانتْ لَه صُورةٌ حسيَّةٌ لاشكَّ فيها ، وكانتْ تُصَاحبُه صُورة نفسيَّةٌ هي أيضًا توشِك أن تكون لاشك فيها »[2] .

(٢،١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٧٤٤

ثم يمضي الشَّيخُ في لفتنا إلى ما في كلمة « حَتَّى أدركه العطش » وأبان أنـَّها مع دلالتها الحسية دالةٌ على عظيم شوقِه إلى غيثِ الهدايةِ والفطرة ، ثم يتلبث عنْدَ دلالة رغبة الرّجل وقد يئس في أن يرجع إلى المكان الذي كان فيه ليموتَ فيه .

هنا يُنضج قلبُ الشّيخ لنا دلالة ذلك على ما في ذلك من الحَنين إلى المعنى الرُّوحيّ الَّذي يُفهم مِن الرَّغبة في الرّجوع إلى المكان الذي كان فيه ، فهو رمز للفطرة التي كان عليها ليموت فيها غير مفارقها .

هذا المعنى الذي أبصره الشَّيخ في رغبة الرجل في الرجوع إلى مكانه الأول لا يبلغه المرءُ إلا إذا توقد قلبه وافتأد لينضج هذه العبارة : « أرجع إلى مكـاني الذي كنت فيه حتى أموت »

والشّيخ يلفتنا بقولِه : « لما كـان نائمًا كـان لا يـدري » إلى حـال العاصـي الغافل قبل توبته ، لندرك حالنا ونحنُ في المعصية ، وكأنَّ هذه الحال تحـاجزُ المَرْء عن أن يُدرك الحقيقة ، فهو في غيْبة عمَّا يجرِي فيه .

ومثل هذا لا يرضاه عاقلُ لنفسِه .

ولَو لم يكنْ في المَعصية إلا هذا لكنَّا أحقّ بأن نحاولَ الفرارَ منها حين نقعَ في قبضتها ، فليسُ جلال الله تعـالى وحـده هوالـذي يحـاجز عـن المكـث في المعاصي بل جعل الله جَلَّ جَلالُهُ للمرءِ السوي من نفسِه أيضًا ما يجعلـه يفـرُّ من المعصية حين يقع في أسرِها . فيكون ثَمَّ حاملان عظيمان على أن يخـرج من قبضة المعصية :

الأول : الأعظم شأن الله تعالى الجليل .

والآخر : ما يجب أن يكون المرء عليه من الوعي بحاله ومـا يُحـيط بـه ، وما يجري فيه .

ولذا كان في الجاهلية رجالٌ لا يشربون الخمر إجلالاً لأنفسهم من أن يقيموها فيما تقيمُ فيه الخمر شاربها ، وتلك هِي الرُّجولة التي نفتقدها . والّتي يجبُ أن نغرسَها في أبناءنا عامَّةً وفِي طلاب العلم خاصَّة .

وحين أقيم في معصية أستشعرُ بعدها صغاراً من أنّي لمْ أصبر على الحفاظ على مقتضَى الرُّجولة ، فبقدر مقامي في المعصية يكون خلائي من استحقاقاتِ الرُّجولة ، فلا يُقيم العبدُ في المعصية وهو رجلٌ .

* * *

ومن هذا أيضًا ما تراه في تدبّرِه ما رواه مسلم في كتاب «التوبة» من صَحِيحِه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِى كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِى تَغْلِبُ غَضَبِى».

يتلبث الشيخ عند الإعراب بقوله (تغلب) فرأى ببصيرتِهِ مغالبة بين صفتين من صِفاتِ الله سُبْحانَه وتَعالَى «رحمته وغضبه . فتلبث يستطعم الإعراب بفعل المغالبة وما فيه من تنافسٍ بيْن الصفتين في الحلول بالعباد ، فرأى أن فهم هذه المُغالبة يقتضي أن نكون على وعي بمن يسْعَى الغضبُ الإلَهِيّ إلى أن يَحلّ بِه .

نظر في أحوال العباد فرآهم لا يخرجون عن خمسةِ ضروب :

١- غيرمكلف لصغر .

٢- كبير غير مكلّفٍ لانتفاء عقلٍ .

٣- مكلّف مسلمٌ متلبسٌ بصغيرةٍ لم يتبْ منها .

٤- مكلفٌ مسلمٌ متلبسٌ بكبيرةٍ لمْ يتب منها .

٥- مكلفٌ متلبسٌ بشرك .

ما تقع فيه المغالة ضربٌ واحدُ لا غيره : مكلف مسلمٌ متلبسٌ بكبيرةٍ لَمْ يتبْ منها .

وضربٌ هو من خصائصِ غضب الله تعالى لا تغالب فيه الرحمة الغضب وبذلك تضيق دائرة من يسعَى الغضبُ ليحلّ به .

ليْس في دائرة المغالبة من لم يكن مكلَّفًا ، لصغرأوغيرِه ومن كان مكلفًا متلبثًا بصغيرةِ ، ومن كان مكلفًا وقد تاب من كبيرة اقترفها .

لم يبق في دائرة المغالبة إلا ذلك المكلف المقيم على كبيرة لم يتب منها ، أما من كان مكلفًا متلبسًا بشرك فذلك هو نصيب الغضب خالصًا .

وبرغمٍ مِن ذلك لا تكفّ الرَّحمة من مغالبة الغضبِ لتشاطر الغضب فيما هو شاركها فيه . تسعَى إلى أن تقتنص منه ذلك المسلم الذي على كبيرةٍ لم يتب منها ، وتدع له ذلك المشرك ، فكفاه محلا له ، ليكون ذلك المشرك هو المختص بكلّ ما لله تعالى من الغضبِ ، وفي هذا من التنفير من الشِّرك ما فيه .

كذلك يقيم الشيخُ في قلوبنا اليقين بعظيم سِعة رحمةِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى حتى لا نقع بذنوبنا في دائرة القنوط ، لأن في القنوط سوءَ ظنّ بالله تعالى ، وهذا ممَّا لايليقُ بالعبد مع ربّه سُبْحانَه وَتَعالَى ، فليس لله تعالى حاجة في أن يعذّبنا . ﴿ **مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾ (النساء:١٤٧)

وفي إقامة الشيخِ في قلوبنا اليقينَ بعظيم سِعةِ رحمةِ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه حث لنا وإغراء بأن نُسارعَ إلى ما تسارعُ الرَّحمةُ إليْه ، وَأَنْ لا نخذلَها ، وهي تغالبُ الغضبَ كيما لا يَحلّ بنا ، فنسْتفرغَ جُهدَنا أنْ لا نكونَ من الذين يغالبُ الغضب أن يحلّ به : المسلم المقيم على كبيرةٍ ولم يتبْ منها .

هذان التفصيلُ والمفاصلة لا سبيل إلى تحقيقهما إلاّ بأن يبلغَ تَفـؤّد القلـبِ مبلغًا ينضجُ به المعرفة ، ويجعلها مسْتطعمًا شهيًّا مدهشًا . وقد فَعـل الشـيخُ ، فأدهشنا ، ولم أكنْ من قبلُ قـد التفـتُ إلى هـذه المعـاني القائمـة في قولـه الله

obeikandi.com

تعالى (إن رحمتي تغلب غضبي) لما يَرين على قلبي من متكاثر المعاصِي ، فبَجّحَنِي ـ أعزّه اللهُ بطاعته ـ بسِعةِ رحمة ربيّ سُبْحانَه وَبِحمدِه وشَوقها لأن تحلَّ بي ، فتبجحت وتأدَّبتُ ، وازْدَدْتُ ـ بحمدِ اللهِ تعالى علمًا بشأن ربّي سُبْحانَه وَبِحمدِه .

* * *

محصل القول أنّه إذا ما كان «الذَّوقُ» أداة إدراك مكان الخبيْء ووضع اليد عليْه ليستخرجَ فإنّ ذكاءَ قلبِ العالمِ هو الأداةُ الرَّئيسةُ الَّتي يقتدرُ بها على أنْ ينفُذَ في أغَوار البيانِ ، هو أداةُ ثقبٍ وحفرٍ وتغور في البيان يستنبطُ بها ما هو مكنونٌ مكنوزٌ في أعماقِه .

والعلماءُ متفاوتون في هذا تفاوتًا جدّ وسيع وعميق ، فأنت إذا ما نظرْت في صَنيع الشَّيخين ابن تيمية وابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنهما وهما ينفذان في البيان ويستخرجان مِنه ما لا يتصوَّر لك قبلَ أنْ تنظرَ في ما أخرجا من دَرَره ، تدركُ ما لهذيْن الرَّجليْن مِن ذكاءِ القلبِ على نحوٍ لَم يكنْ لكثيرٍ مِنْ أقرانهما ، فهُما لم يتميَّزا عندي على أقرانِهما بِوفرةِ معلوماتِهما ومَحفوظهما مِن المَذاهب والآراءِ فِي القضايا والمسائلِ ، وإن كانا في ذلك على شَرفٍ سامق ، إنّما كان مناطُ التَّميز عندي أنّهما يَملكان قلبًا ذكيًّا نافذا في أغوار البيان ، فكانا من أعظم من يغوصُ على الدّر في أعماقِ البحار في زمانهما وفيما جاء من بعدهما .

كذلك الشيخ كان له من ذلك بين أقرانه من أهل العلم هذه المزيَّة التي هي في أصلها عطية ربانيّة أذكى أورها ما كان منه من مجاهدة في طلبِ العلم وخدمتِه .

* * *

الأداة الثالثة : عظيم محبته للبيان وصاحبه .

هذا عاملٌ جدٌّ عظيم من عوامل فَتَاءِ قراءة الشيخِ بيان النُّبوّة ، والعلاقةُ بيْن القارئِ وصَاحبِ البيان سواء كان بيانَ وحْي أو بيانَ إبداعٍ لَه أثرٌ بالغٌ في هذه القراءة .

ذلك أنّ هذه العلاقة حين تبلغ درجةَ المُخادنة بيْن القارئ والبيان تفتَحُ مغاليق هذا البيانِ ، ويتكشف له ما لا ينْكشِف لغيره ، فالبيانُ البليغ أشبهُ بالمرأة المسلمة الَحَصان ـ وكلُّ مسلمةٍ حصَانٌ ـ لا تبذل خفيّ محاسنها إلا لمن أصدقها الوُدّ ، وسلك إليها مشروعَ السُّبل،وبلغ من أمنها له مبلغًا التوحّد، فهو عندَها بمنزلة نفسِها ﴿ **لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ (الروم:٢١) ، فمخادنة البيانِ وجعل مسكنَه الفؤادَ هو الذي يأذن له أن يلقَى أستاره ، ويفتح مغالِيق خزائنه .

وبيان الوحي قُرآنا وسنة ، لا يمنح دقيقَ معانِيه الإحسَانية لكلّ من عرضَ له ، بل لمن أقامِ وألحّ وبذل صادقًا متقنًا كلّ ما له من قدرات ومهاراتِ التلقّي ، ومنها اتقاءُ سبيل المغضُوبِ عليهم الّذين يعلمون الحَقَّ ويَبطرونَهُ ، ولا يخضعُون له وسبيلُ الضّالين الذين يعملون بغيرِ علمٍ[١] .

---

(١) يدخل في سبيل المغضُوبِ عليهم ثُلة من المشتغلين بعلوم الإسلام الذين تفقه ألسنتهم وتجهل قلوبهم وجوارحهم ، وإن حملوا في أيديهم أعلى الدرجات العلمية ، واستولوا على أعلى المناصب . ويدخل في ثلة الضّالين ثلة ممن يسمون أنفسَهم الصوفية ، فهم يتعبدون ربهم بالبدعة ، وعجيب أن يعبدَ العبدُ ربّه تعالى بما لا يُرضيه أوبما لم يشرّعه ، وكأنّ لسان حاله يقول له : أنت أيها الرَّب لا تعلم ما يليق بك لنعبدك بِه ، فنحن نخترع لك عبادة تليق بك .

كذلك ينطق لسان حال كل مبتدع يَسُبُّ من يعبدُه ، وإن كان لا يقصد إلى ذلك بعقله فإنه إن قصده كفر ، وفرق بيْن أن يدل لسان الحالِ على شيْءٍ ، ولاينطق بِه لسان المقال ، ولا يقصِده الجنان .

مدلول لسان الحال يجعل صَاحبه في ضلالة ، ومنطوق اللسان ، ومقصد القلب يجعل صَاحبه في كفران ، فافترقا .

هذه الأداة : أداةُ المحبَّة الصَّادقة لِلْبيَان وصَاحبِهِ ، أداة وهبيةٌ في تأسيسها ، كسبيّة في تفعيلها واستثمارها ولها أثرٌ جدٌّ عظيم في قراءة بيان الوحي .

وأنت تقرأُ ما كتب الشَّيْخ في كتابه هذا ، تكادُ تُبصرُ عينيه ملآنة بدمع المحبّة ، وهو يتلقّى هدي النّبوة ، ترَى هذا في عبارته ، بل تراه في أثر عبارته فيك ، فينفعلُ قلبُك وعقلُك ، ويرتجفُ جسدُك ، ولا سيّما وهو يتكلمُ في رحمةِ رسُول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ بالأمّة ، وحرصِه على السَّلام الاجتماعيّ بيْن مكوِّنات المُجتمع ممّن آمن به وسلك نجدَه ، ومَن لم يُؤمن به ، وسالمَ الأمّة ، فكان مواطنا لا متواطئًا .

وهذا هُو مُنطلقُ الشّيْخ في موقفه من الآخر مواطنًا أو متواطئًا . هو موقفٌ استمدَّه مِن وعيه النّافذ ببيان النُّبوّة ، وما يَذخرُ به من الحِرص على وحدة الأمّة وتماسك بنيتها الوطنيّة ، فيجعلُ للمواطن الذي لم يُؤمن برسُول الله صَلّى الله عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم تسليما كثيراً ما هو للمواطن الذي آمن به عَلَيْهِ وعلى آله وصحبِه الصَّلاةُ والسَّلامُ في شأنِ المواطنةِ أي في حقه في الوَطن[1] .

---

(١) لما كان الجهادُ في الإسلام دفاعًا عن حقه في أن يبلغ كلَّ مكان وإنسانٍ ، كان من العدلِ أن لا يكلّف المواطن غيرُ المؤمن به أن يقومَ بذلك الدِّفاع عن حق دينٍ لايؤمن به ، ومن ثَمَّ لم يشرع اشتراك المواطن غيرِ المسلم بالجهاد دفاعًا عن الإسلام . وفرض عليه أن يؤدِّي قدراً من المال كل عام بضوابط سماه القرآن جزية أي جزاء الدِّفاعِ عنه هو وحمايته ، وليس جزاءَ عقوبة له على كفره بالإسلام .

وليُّ الأمر ليس من حقه أن يعاقب من لم يرتض الإسلام دينا له ، فذلك لله تعالى وحده

وحين لا تكون الحروب دفاعًا عن حق الإسلامِ في أن تبلغ دعوته كلَّ أذن ، ولصاحبها بعد إبلاغه أن يقبل وأن يرفُض وجزاؤه عنه اللهِ تعالى ـ كان للمواطن غير المسلم أن يشارك في تلك الحرب ؛ لأنَّها دفاع عن أرض هومولودٌ بها ومقيم عليها ، وشريك فيها .

==

تبصر هذا وأنت تقرأ ما توافد على قلبِ الشيّخ من بيان رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ هاديا إلى وحدةِ الأمّة ، وإلى عزها في مسيرها ، وسعادتها في مصيرها .

هذه الأداة كان ظهورُها في هذا الكتاب أقوَى من ظُهورها في كتبه الأخرى .

ولعلّي أكتفي هنا بما تراه مِن مقالِه مُتذوِّقًا ما رواه مسلمٌ في كتابِ الذِّكر والدُّعاء والتَّوبة بسندِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ » .

وقف الشَّيخُ عند قول النَّبي ﷺ : « أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ». فيثوِّرُ لنا ما فيها ، وينْفُثُه في قلوبنا ، وقد لفتني إليه وكنتُ عنه غافلا . يقُول : « أَقولُ رسُولُ اللهِ ﷺ يرْشِدُنا إلى ضَربٍ مِن الذِّكر خارجٍ عَن حساباتِ التِّجارةِ ؛ لأنَّ الحُبَّ فِيه لا يعدِلُه شيْءٌ ، والغِبطة بِه لا تعدِلُها غِبطة ، وأنَّك لوذقت منه ذوقة لوجدته أحبّ إليك ممَّا طلعتْ عليْهِ الشمسُ ، والشمسُ تطلعُ على السمواتِ والأرض ، وعلى كلِّ ما فِي الأرضِ ، وهو لاحصرَ له .... »[1]

كأني بالشيخ يلفتني إلى أنَّ إِعراب رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ بكلمة « أحب» إلى أن الاشتغال بذلك الذّكر صار محبوب الذاكر ، فالأمر هنا تحول من مجرد حركة لسانٍ بكلماتٍ إلى فعل قلبيّ يملأ جنباتِه فلا يدع لغيرِه محلاًّ .

== علينا أن نفرق بين حربٍ هي دفاعٌ عن حق الإسلام في الدعوة وحربٍ هي دفاعٌ عن الأرض أو المالِ أو العرض . الأولى خاصة بالمسلم ، والأخرى عامّة كل مواطن .
نقول هذا بيانًا للحقّ كما نراه ، وليس استرضاء لأحد كائنا من كان في كلّ عصرٍ أو مصر ، فإنّ المسلمَ لا يسترضي إلا ربه سُبحانهُ وَتَعَالَى

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٨٧٥/٢

استحالة الذِّكر إِلى حبٍّ للمذكور المعرب عنه بجريه من القلبِ على اللسانِ إنما هو هادٍ إِلى أنّ الذكر لا يستحيل كذلك إذا ما كان ذلك فعل لسان والقلب عنه غافل . فالـذكر في حقِيقَتِه وأصله حضور المـذكور في القلـب ، وإن لم يتحرك اللسان بِه . فما تحرك اللسان بِه إلا إعرابًا عمًّا في القلب وإلا إِشراكًا للسان في التمتع بهذه النِّعمة الكبرى .

لا يسْتحيلُ الذِّكر مَجلي حُبٍّ في القلبِ إلا إذا ما كان ذلك الذكر باللسان منبعثًا من القلبِ المفعم بحُبّ المذكور . فمنْ أحبَّ شيْئًا أكثرَ مِن ذكرِه وتبادرَ على لسانِهِ .

ولفتني الشَّيخُ بقوله : « وأنك لوذقت منْه ذوقة لوجدته أحبّ إليك ممَّا طلعتْ عليْهِ الشمسُ » إلى أنّي حين أرجع إلى نفسِي فأجدها منشغلة عن الذِّكر بشيءٍ من الدنيا أعلم علم يقين أنها حينئذٍ لم تذق تلك الذوقة ، وأعلم علم يقين أني قد غبنتُ نفسي ، وليس أحمق ممن يغبن نفسَه ، فَإِذَا ما كان غَبْني غيري قميئًا في شرعة الرِّجالِ ، فكيفِ بغبني نفسِه؟!!!

كذلك يبعثني الشيخ إلى أن أجاهد لأذوق تلك الذوقة .

ويمضِي الشيخ يبين لنا أن رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ يبعثنا إِلى أن نطعم ما طعم وحينذاك ستتغير الآمال ، والمقاصد والمشاغل ، وستتبدَّلُ الحياةُ من حولنا ، وستكونُ الدنيا في أيدينا ، محرمٌ عليها حِمَى قُلُوبنا وإن جاهدتْ ما جاهدتْ ، وسَيكونُ بذلُها أحبّ إلينا من أسْرها في خزائننا ، ثمَّ يقول : « عجيبٌ أن يكونَ تحتَ لسانِي وفي نفسِي شيْءٌ ساكنٌ إذا آثَرْتُه ثَارَ وإذا استحضَرتُه حضرَ ـ ثُم يكون أحبّ إليَّ ممَّا طلعتْ عليه الشمسُ » ويمضي ينثر لنا عجائب ما طلعت عليْه الشمس ، والنفس به جد متعلقة وإليه متشوفة ، ثم يكونُ هذا الذِّكر حين يمسّ القلبَ أحبّ إلينا من كل ذلك الذي ملأ الأرض . وتعلقت بِه النفسُ حين لا تقُومُ مقام الذّكر .

كأنّـي بالشّيخ يقولُ لي إذا كانتْ نفسُك حين تباشـر شـيئًا مـن متـاع الـدُّنيا تتعلقُ به ، وتجهدُ في تحصيلِه وتوثِيقه ، فإنَّ نفسَك هذه إذا أخـذتها ، فأقمتهـا في الذِّكر ، وشغلتها به ، وحاجزتها عـن سَطوةِ متـاع الـدنيا عليْهـا ، سـيكونُ شغفُها بالذِّكر أعظمَ مِن شغفِها بكلِّ ما طلعتْ عليْه الشمس فـالنفسُ إِذا ذاقـت متاع الدُّنيا ، ثم ذاقت الذّكر ذوقًا صَادقًا لن تعدلَ بذوق الذِّكر شيْئًا .

أنتَ المسؤولُ عمَّا تتعلقُ به الـنفسُ ومـا تعشـق . إن تركتهـا تخـادن الـدّنيا وتتعبدْ ، فأنت الّذي أوردتها المهلكة ، وهي القابلةُ أن تقيمها في مقامِ الذكر إن عزمت وأخلصت وأتقنتَ ، فلمْ تفضّل هِيَ عَليْه غـيره . فعجيـبٌ أن لا يجهـدَ المرءُ في نُصح نفسِه ، فمن فعل ، فكيف يمكنُ أَن يوثقَ بأنـه سـيجهد وينصَـح لغيرِه؟!!!

كأني بالشيخ يقُول لي إذا رأيت من يجهـد لنفسِـه ليقيمهـا في قبضـة الـدنيا فإياك إياك ، فما أنْت عليْه بأعزَّ من نفسِه ، هُو لم ينصحْ لها فيقيمهـا في مقـامِ الذكر وأقامها في مقام الغفلة والذل . أتتوهم أن يفضلك عليهـا ، فَيجهـد لـك وينصح ؟!!!!! . لا يكون .

* * *

الأداة الرَّابعة : الواقع النَّفسِيّ إزاء الواقع الخارجيّ :

تَقُوم دعوة الإسلام على دعامتين :

الأولى : تبيينُ الحقِّ ونصرِه .

والأخرى : تبيينُ الخير ونشرِه .

وبيانُ الوحي قُرآنًا وسنَّة ليس فيه إلا هَذان متمـازجين . وإن تنوعـت سُـبل الدَّلالة عليهما والبصيرةُ النافذة لا تفتقدُ أيًّـا منهما في أي آي من آياتِ القرآن

أو حديثٍ من بيانِ النبوةِ . ومِعيارُ موقعِ المَرْءِ مِن الإسلامِ معتقدًا وسلوكًا هو مقدارُ تحقُّقِ هذيْن في حياتِه .

وكلُّ عالمٍ بكتابِ الله سُبْحانَه وَبِحمدِهِ وسنَّةِ رسُولِهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ عمود رسالتِه هُو حملُ العبادِ بالحكمةِ والموعظةِ الحَسنةِ إلى تحقيقِ هذين في حياتهم .

ومن يقرأُ ما كتب شيخنا في أسفارِه ، ولا سيّما سفره : « شَرْحُ أحاديثَ مِنْ صَحِيحِ مسلم » يستشعِرُ قُوة ما هو آخذٌ به من الإحساسِ بعظِيم مسؤوليته إزاء دينِهِ وقومِهِ ووطنِه ، فهو مهمومٌ بكلّ ذلك ممَّا يجعلُ استفراغَ جهدِه في القيام بحقّ هذه المسؤولية سِمة من سماته ، فهو لا يَكفُّ عن البحثِ والتَّحقيقِ والتّقريبِ لحقائقِ الإسلام ، وتثوير قِيم العِزَّةِ والكرامة ونبذِ الظلم ، ونشرِ العدلِ ، والحُريّة المسؤولة . وهذا الإحساسُ يجعلُه مِن أكثرِ أقرانِه إنتاجًا وأحكمهم نظرًا لواقعِ أمته في ضوءِ بيانِ الوحي قُرآنًا وسُنة . فالواقع النفسيّ له مرتهنٌ بالواقعِ الخارجيّ المحيط به ، فهُو لايَعيشُ في نفسِه ولنفسِه بمقدار ما يعيشُ في قومه ولقومه ولا سيّما لطلابِ العلمِ وأهلِه ، ومَن كان كذلك كان همُّه بدينه وقومه ووطنِه همًّا متكاثرًا .

ترى ذلك جليًّا في قوله : « وليغفرُ اللهُ لِي لأنّي أكتبُ هذا فِي نفَسِ السّاعةِ التّي هِيَ سَاعتِي ، ومن ماتَ فقد قامتْ قِيامتُه ، وإني لأرى قِيامتِي تقتربُ ، وأردتُ براءة الذمّةِ ، وليغفرُ اللهُ لِي ؛ لأنّي أجتهدُ وليسَ فِي قلبِي مثقالُ ذرةٍ من الشّحناءِ والبغضاءِ لأحدٍ ، وإنّما همّي هو أمّتي ، وما هِي فيه من عَجزٍ وتسلّطٍ ليسَ مِنْ أعدَائِها ، فحسبُ ، وإنّما مِنْ حُكّامِها الّذينَ تَغلّبُوا عَلَيْها ، وامتلَكُوا لَيسَ الحُكْمَ ، فَحسْبُ ، وإنّمَا امتلَكُوا الأرضَ ، وامتلَكُوا رِقابَ النّاسِ »[1]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ مِنْ صَحِيحِ مسلم : ١/٤٠

جعلتُ ارتهان الواقعِ النفسيّ بالواقع الخارجيّ من أدواتِ القراءة ، وقد يُحسب عَجلٌ أنّه لا يكون منها ، ولكنّي أجعلُ الواقعَ النّفسيّ أداةً من أدواتِ القراءة ، فهو عندِي عديلُ الواقع العقليّ بما يُفعم بِه من فيوض العلمِ والثقافة والمعرفةِ .

إنَّ حضُورَ مثل هذا في قلبِ صَاحبِه وهو يقرأ بيانَ النُّبوة يكونُ عاملاً في تَحقِيقِ أمورٍ كثيرة من أهمها الإتقانُ في فقه معاني الهدَى وتغوّره ، وفي تثوير كلِّ ما هو مكنونٌ في هذا البيان ، ليكون سبيلاً إلى استخراج الأمَّةِ من ظلماتِها .

والإتقانُ في صِياغة البيان القادرِ على إيصال المعاني إلى القلوبِ وتقريبها وتمكينها وتفعيلها ، فالقلبُ إذا ما خلا من هذا الشُّعورِ الصّادقِ لا يكون على صَهوة المجاهدة في القيامِ بحقِّ الفهم والإفهامِ .

وغيرُ قليلٍ ممَّن يملكون فتوّة عقليّة في بابِ العلمِ والمعرفةِ والثَّقافةِ ، لا يكونُ لهم هذا الحُضورُ فهمًا وإفهامًا في قراءةِ البيانِ النّبويّ الّذي هو للشّيخ ، ومِن ثَمَّ لا تجدُ في أعمالهم ما تجدُ في ما كتب الشيخ أو في ما سبّح به في مجالسِه العلمية .

وهذا يهدينا إلى أن يكونَ اعتناؤنا بالحُضور النَّفسيّ لواقعِ الأمّة ونحن نقرأُ بيان الوحي قُرآنًا وسنّة ، ذلك أنَّه بيانٌ جاء لِيُخرجَ النَّاسَ من الظَّلماتِ إلى النُّور ، فمن قرأ بيان الوحي ، ولم يُعن في قراءته بالعِرفان المُحكَم بمنهج هذا البيان في إخراجِ النَّاسِ من الظُّلمات إلى النُّور ، ولم يُعن بفهم هذا وإفهامه ، وتفعيله في نفسِه أولاً ، ثُمّ في أمّته عامّة ثانيا ، وفي طلابِه خاصّة ثالثًا ، فخيرٌ له أن يتخذ مجالاً آخرَ غيرَ هذا ؛ لأنَّه مهما قرأ وكتب ونشر ، فإنّه لن يغرسَ في قلبٍ فسيلة خيرٍ . وما كان كذلك فالاشتغال بغيرِه أنفعُ .

وقد كان الشيخُ حريصًا على أنْ يلفتنا إلى أنَّ من أدوات استنباط معانٍ لم تستنبط من بيان النُّبوّة استحضار قضايا زمان الاستنباط . يقول : « وملاحظةُ أمرٍ

مُهمٍّ ، وهو استحضارُ قضايا الزمان ، ونحـنُ نقـرأ الكتـاب والسـنةَ يُنبهنـا إلى أشياءَ فِي الكتابِ والسّنةِ لَمْ يتنبّه إليْها مَن قَبْلَنا ؛ لأنَّ قَضَايانَا لَمْ تكنْ حاضِـرةً عندهمْ ، وإنّما كانتْ لَهمْ قَضَاياهم ، فَنبّهتهمْ قَضاياهمْ إلى ما استخرجُوهُ .

وَطولُ مُمارسَتِي لِتحلِيل كلامِ اللهِ تعالى وكـلامِ رسُـولِه ﷺ دلّـتني عَلَـى أنّ هذه الآيات ، وهذه الأحاديثُ نزلتْ لَنا كما نَزلتْ لِغيْرنا ؛ لأنها عـلاجٌ وَشـفاءٌ للأجيالِ كلّها فِي الأَزمِنَةِ وَالأَمْكِنَةِ ، وكلٌّ ظاهرعلَى الحقِّ ، كمَـا فِـي الحـديثِ يُخيّلُ إليْهِ ، وهُو يدرسُها أنّـها نزلتْ لَهُ ، ولِمنْ حَولَهُ فِـي زمـانِهم هـذا ، وفِـي مكانِهم هذا ، وهذا ظاهرٌ جدًّا ، وهو أعظمُ وُجـوه الإعجـازِ الّـتي لَـم نسـتوفِها حقّها »[1].

هذا الاستحضارُ للواقع ليس عندي ممّا يُعلّم ، لأنّـه أمرٌ نفسيّ جُوانيّ ، وكلّ عامل داخليّ نفسيّ هُوَ مِن العَواملِ الوَهبيةِ لا الكَسبية ، لأنّـه وإن علمتْ أهميته وطريقته ، فإنّ استحضاره في سياقِ القِراءة والتلقّي والفهمِ لا يُعلّمْ ، بلْ هُو هِبةٌ ربّانيةٌ ، وإن خالفني في ما ذهبتُ إليه مخالفٌ ، فلكلٍّ وجهةٌ هو مُوليها .

والعلم النافع هو ذلك العلم المرتبطُ بالواقعِ يحدث فيه ارتقاءً من طورٍ إلى طورٍ أعلَى حتّى يبلغ به مقام الإحسانِ .

وإذا ما كنا نشترطُ في كلِّ بحثٍ علميٍّ أن يكونَ له قيمتان :

الأولى : قيمة علمية متعلقة بالقضايا والمسائل التي هي محل البحـث عـن الحقيقةِ العلمية الغائرة أو عن المشكلة وحلّها .

والأخرَى : قيمةٌ مجتَمِعيّة متعلقة بما يفيـده ذلـك البحـث للمجتمـع الـذي يصنعُ فيه هذا البحث . فعلم لاينتفع به في تزكية حركة الحيـاة وتنميتهـا علـمٌ لاينتفع به ، وقد استعاذ سيّدنا رسولُ الله ﷺ مِن علمٍ لاينفع .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٣٨٩/١

رَوى مسلم في كتاب «الذكر والدعاء والتوبة» من صَحيحِه بسندِه عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَرْقَمَ قَالَ لاَ أَقُولُ لَكُمْ إلاَّ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ كَانَ يَقُولُ : «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ .

اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا .

اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا».

واستعاذة النبيِّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ من شيْءٍ فيه دلالة على عظيم خطرِ هذا المسْتعاذِ منه ، لأنّ اللجوءَ إلى الله تعالى في دفعِه يفهم أنَّ طاقةَ المُستعيذِ مهما بلغتْ لا تقومُ وحدَها بالوفاء بدفعه ، فلا سبيلَ إلا إلى اللجوءِ إلى مَنْ بيدِه الأمرُ كلُّه سُبْحانَه وَتَعالَى .

وهذا من تقريرِ فحولةِ خطر ما استعِيذ باللهِ جَلَّ جَلالُهُ منهِ وشمول ضَرّه ونفوذِه ممَّا يستوجبُ على كلِّ ناصحِ نفسَه وقومَه أن يعملَ على أن يكونَ فِي منعةٍ بالله عزَّ وعلا منه .

من العلم الذي لا ينفع ما لم يكن من فريضة الوقت ، وإن كان في وقت آخر نافعًا ، فالنفع مرتهن بحاجة الأمة زمانًا ومكانًا وجنسًا ، فالفقير الذي لا يشتغل بتعليم الآخرين حين يستفرغُ جهدَه في تعلم أحكام الزَّكاة ، ومذاهب العلماء وآرائهم وينشغلُ عن ما هو أهمُّ من ذلك هو في علمٍ لا ينفعُه، وإن كان اشتغال غيرُه به فريضةً . فلنفعُ العلم وعدمِه ضوابطُه .

وهنالك ضروب من العلمِ لا تنفعُ في كلِّ عصْرٍ ومصْرٍ وجنسٍ والاشتغال بها اشتغالٌ بما هُو إلى اللّهو أقرب .

من هذا الاشتغال بتعيين محلّ رسو سفينة نوح ، وأسماء فتية الكهفِ ، وزمان تكليم الله سُبْحانَه وَتَعالَى سيدنا موسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ونحو ذلك . .

وكلُّ علم لا يعملُ به عالمُه هو من العلم الذي لا ينفعُ أي لا ينتفعُ به صَاحبه ، فعلة عدم نفعه هي عدمُ العمل بِه .

وأُسند عدم النّفعِ إلى العلم إعرابًا عن أنّه لمَّا أعرضَ صَاحبُه عن استثماره كأنَّ العلم أبَى أن يكونَ منه نفعٌ لصاحبِه الذي أهمل العمل به غضبًا منه عليه لما أهمله . فكلُّ علمٍ يزكّيه وينمّيه العملُ بِه .

وكأنَّ حقَّ العلم على كُلّ من علمه أنْ يعملَ بِه ، فمن ترك العمل عن غيرِ عجزٍ بعلم في أصلِه نافع فقد ظلم العلم ، فكان جزاؤه أن يمتنعَ العلمُ عن نفعه جزاء وِفَاقًا .

وكذلك من العلم الذي لا ينفعُ العلم الذي يجتهدُ صاحبه ليكون معدودًا في عداد كبار العلماء في قومه أو ليجادل به السُّفهاءِ أَوْ ليصرف به وجوه القَوْمِ إليه ، أوليسبي به قلوب العباد إليه أو إلى مبتغاه . ليكتسبَ به متاع الدُّنيا .

هذا علمٌ لا ينفع صَاحبَه لأنّ ما سيكتسبه من متاع الدّنيا بهذا العلمِ هو من خسرانه في الحقيقةِ هو قد استعمل هذا العلم في غير ما هو له ، وكلّ ما استعمل في غير ما هو له كان غَيرَ نافعٍ ، فإن استعمل في ما هو له كان أنفعَ ما يكون . .

وهذا يُبيّن لك خطلَ أولئك الذين ينفقون أعمارهم وجهدهم وأموالهم في اكتساب علومٍ هي أفسد لمسيرهم ومصيرِهم ، ويبيّن لك أيضًا ضلالة من يحتفون بأولئك ، ويجعلون منهم صفوة المجتمع ، والنخبة المثقفة ، وتوكل إليْهم أمور الأمةِ ، وهم الأحق بأن يُتحاجز عنهم ، بل الأحقّ بأن يُحجزوا عمّا هم فيه ، أو يُحجزوا عن المُجتمع : « فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ» .

(البخاري : الطب)

* * *

• ثانيًا : الأداوتُ الكسبيّة للقراءة عند الشَّيخ

في استهلالُ الوحي بقول الله سُبْحانَه وبِحمْدِهِ : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:١-٥) دعوةُ إلى أن لا يكتفِي العبدُ بما منحه الله تعالى من أدوات التلقّي الوهبية ، بلْ عليْه أن يسْعَى جاهدًا إلى اكتسابِ أدواتٍ هي التي تستبقِي للأدواتِ الْوَهْبِيّةِ حياتها ، وتحقق لها نماءها وفاعليتها .

وفي هذا الاستهلالِ إعرابٌ عن أنّ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه قد يسَّر للعبدِ اكتساب هذه الأدوات . ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فحرى بكل ناصحٍ نفسَه وقومه أن يكونَ له من التعلّم بالقلمِ نصيبٌ موفورٌ يستثمرُ به نعمة أدواتِ التلقِي الوهبيّة ، وإلا كان هذا تعطيلاً لنعمةِ الله تعالى ، وتعطيلها من الكُفر بِها .

عمادُ هذه الأدوات الكسبيّة «الثقافة» على اتساع في مدلوها : ففيها يدخلُ العلمُ بكل مايُمكن العلمُ به والمعارفُ والتّقاليد والأعراف الاجتماعية والدّربة والمذاكرة والخبراتِ المكتسبة من الآخرين . . . إلخ

جمهرةُ أهلِ العلم بالبيان على أنَّ الذّوقَ على الرّغم من عظيم أهميته في تلقّي البيانِ البليغ ، فإنّهم أيضًا على أنّه وحده لا يُجدي بل لا بدَّ له من العلم والمعرفة والمثاقفة والمدارسة ، والدّربة والخبرة . . . .

ذلك أنّه إذا ما كان الذَّوق هو الذي يقُوم بتعيين مناط الحُسن أو القبح ، ويضعُ اليدَ على موضع الفُروق بيْن الأشياء ، فإنَّ العلم والمعرفة والثَّقافة والخبرة . . . هو الذي يهديك إلى علّة الحُسنِ والقُبح .

والعلمُ والمعرفةُ والتّحصيلُ بغير الذّوق هُو إلى الجُمودِ والتَّحجُّر أقربُ منه إلى المَرونةِ ، فالذَّوقُ يَمنحُ العلمَ والتّحصيلَ والإحاطةَ بالقَواعدِ والقوانين مُرونةً واقتدارًا .

هذا العاملُ الكَسبيّ مِن العلمِ والدُّربةِ كان عبدُ القاهر جدّ حفيّ بتوكيدِه ، يقُول : « أنَّه لا بدَّ لكلّ كلامٍ تستحسنُه ، ولفظٍ تستجيدُه ، من أن يكونَ لاستحسانِك ذلك جهةٌ معلومةٌ وعلّةٌ معقولةٌ وأن يكونَ لنا إلى العبارةِ عن ذاك سبيلٌ ، وعلى صحةِ ما ادَّعيناه من ذلك دليلٌ »[1].

* * *

وآيةُ تحقُّق العلم على تنوّعه في هذا البابِ أنّه إذا ما نظر فيما استحسنه أهلُ العلم بالبيان وما استقبحوه أو ما فضلوا بعضه على بعض علمَ مَخرج حكمهم ، فكان بذلك مالكًا مِن العلم ما يكونُ أداة له في قراءةِ البيان البليغ .

فالَّذي لا يعلمُ مخرجَ حُكم من حكم بحسنٍ أوقبح أو علو بيان على بيان هو ليس بأهلٍ لأن يقرأَ البيان قراءة نافعةً ، لأنّه فقد الأداةَ التي تضع يدَه على علة التمييز بيْن الأشياءِ . فالحكم الفطريّ لا يُجدي وحده ، بل لا بدَّ من الترقّي إلى الحكم العِلمي المؤسس على حسن التأويل والتعليل .

* * *

ومن ينبتُ في رياضِ الأزهر ويورق ويزهِر ويثمر ولاسيما في القرن الرَّابع عشر الهجريّ وما قبله يَحملُ مِن العلم المُتعدد المجالات فيضًا بالغًا ، فما مِن علم من علوم الإسلام وأدواتها إلاَّ وهو آخذٌ منه بنصيبٍ موفور ، ومكونٌ من مكوناتِ شخصيَّتِه العِلميّة والمَعرفيّة .

كان طالبُ العلم في ما قبلَ التعليم الجامعي يدرسُ من علوم العقيدة ، وعلوم الشّريعةِ وعلوم القرآن من تفسير وتجويد وعلوم السنةِ ، والفرق الإسلامية أصولها العقدية وما بيْنها من اتفاق وافتراق . وعلوم العربية نحواً وصرفًا وتاريخ أدب ونصوصًا أدبية شعرًا ونثرًا وقراءة ، وإنشاء أدبيًا ، والإملاء والخطّ بفنونه الثلاثة ، وتاريخ الرسالة والإسلام .

---

(١) دلائل الإعجاز . قرأه وعلق عليه محمود شاكر . ص : ٤١ فقرة : ٦٣ .

ومِن وراء ذلك علوم الإنسان مِن تاريخ وبيئة (جغرافيـة) ، وفلسـفةٍ ومنطـق واجتماعٍ وإحصاء وجولوجيا ولغة أجنبية ، ونحو ذلك .

كلُّ ذلك تراه مكونًا مِن مكوناتِ أيِّ نابتٍ في فسطاط الأزهرِ مُتشربٍ غيثه ، متنفسٍ نسائمه .

وقدْ كان الأشياخُ في مرحلة ما قبل التعليم الجامعيّ مُنذ نصفِ قرن مضى إذا سمعتَه يتكلّمُ في فنٍّ من فنون علومِ الإسلامِ ظننْت أنَّه متخصِّص فيه لا يعرفُ غيرَه ، فإذا انتقلَ إلى غيرِه داهمك الظَّن الأوَّلُ ، وهكذا حتى لا يبقَى إلاّ أن تُسلم أنّه مِن الأعيانِ في كلّ ذلك ، فكيفَ بالأعيان في التعليم الجامعيّ ؟!!!

مِثلُ أولئك تلقّى عنهم شيْخنا وحمل عنهم وبهم فيضًا منْ هذا الميراثَ العلميّ والثقافيّ ، وهو ينضحُ في فكرِه وبيانه .

وكذلك ترى الشّيخَ يقرأُ بعناية وبصرٍ ما ينشرُ في المعارفِ والثقافات الأخر ، وإنَّ كانت على غير مناهجِ صِناعةِ الإنسان الصَّالح المُصلح لِيَقفَ على بَواعثهم ، وغاياتهم وأدواتِهم على منهاجهم لِبلغوهم ما يطمحون إليْه .

وقد كان يحثنا على أن لا ننْكفِئَ على علوم العربية وحدَها ، ونعرضَ عمّا يَجري من حولِنا من الثقافاتِ الأُخر ، بل علينْا أنْ نتبصَّرَ ما فيها من خيرٍ ، فنحملَه ، وما كان غيرَ ذلك ندفعُه ونقضُه بالحجّة والبُرهان القويم(١) .

---

(١) إنّي لَعلَى ذُكر أنّه حين أصدرت الهيئة المِصرية العامَّة للكتاب العددَ الأول منْ مجلة « فصول في النّقد الأدبي » حثنا الشّيخُ على أن نتابعها ، وأن نقرأ بوعي ما يأتي فيها ، وبقيتُ أفعل إلى أن باتت ممّا لا طاقة لمثلي بتلقيه ممّا تسكبه من عجمةٍ في صَفحاتها فَخشيت على عقلي منه وذوقِي ولساني ، فأعرضتُ إلى أن تعرض هي عن عجمتها إلى عروبتها .

وقد سمعت شيخنا يعجبُ من أنَّ كلَّ الأحزاب السّياسة في مصر ليس لها مجلة تعنى بالشعروالنقد والثقافة إلا الحزب الماركسي المسمى بحزب التّجمع ، فقد كانت له مجلة شهرية « أدب ونقد » وسائر الأحزاب لم تكنْ تلتفت إلى ذلك . فدلّنا هذا على أنّ السياسة قد تتحذ من الثقافة ومن الأدب أداة تنفث منها أفكارها وعقائدها . .

وهو حَفيّ بالعلم بقدرة البيان على كَشف ما هو غائرٌ في النَّفسِ ، ولذا كان التفاته إلى دخائل النفوسِ من خلالِ البيان ، ولا سيّما في الشِّعرِ .

وفوقُ هذا ما له من ثقافةٍ ومعرفةٍ سابغةٍ نافذةٍ بكثِيرٍ مِن شؤون الحياةِ مِن حولِه ، وهُو الحَفيّ بالتواصلِ بكلّ ما يَجرِي مِن حولِه من شؤون قومِهِ . وهذا يظهرُ جليًّا في هذا الكِتابِ الَّذي ترَى الواقعِ المُحيط بالشّيخ وقومِه حاضرًا حضورًا فتيًّا ، وكان له من احتفالِ الشيخ له ، وقراءته حقيقةَ هذا الواقع وأسبابه ومآلاته في ضوءِ بيانِ النّبوةِ .

الشّأنُ في العالمِ والمعلم والدَّاعية أن يكونَ ابن عصرِه ومصره وقومه وجنسِه ، فهو لا يخادن الأسفارَ تلهيًا بها ، بل يُخادنها مَطية إلى القيام برسالته آدميًّا ، خلقه الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ليستعمر الأرض بمرادِ الله تعالى الشّرعيّ .

وتلك رسالةُ أبي البشر سيّدنا « آدم » عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ « وسماه « آدم » إنّما هو مُشتقّ من « الأدمْ » : الإصلاح

* * *

وإذا ما كانت أداوته الكسبية في التلقّي والفهم جدَّ عديدة ومتنوعة بحكم نشأتِه الأزهرية ، فإنَّ رأسُ الأدواتِ الكسبيّة عنده العرفان بالعربيَّة ومنهاجَها في الإفهام فذلك هو المدخل الكريم .

أذهب إلى أنَّه لوشاء القائمون في الأزهر على خدمة علوم الإسلام ، ولا سيما علم العقيدةِ والشريعة واتخذوا الأمر عبادة وجهادًا في سبيلِ الله تعالى ، وليس عملا يقتاتون منه الدنيا كمثل ما يفعلُ الدّهماء ذوي الحرف اليدويّة لكان حرًى بهم أن يوجبوا على مَنْ شاء أن يلتحق بكلية أصول الدين ، أو بكلية الدَّعوة أَوْ بكلية الشّريعة أن يتخرّج بتفوقٍ أولاً في كلية اللغةِ العربية ، ثم يُؤذن له بأن يكون ذا اختصاص بعلومِ القرآن والسنة والعقيدة والشريعة ، والدعوة ، أمّا أن يأتي الطّالب من المرحلة الثانوية ، وهو لا يكاد في عصرنا

هذا يجيدُ الإملاء ، ولا يكادُ كثير منهم يكتب سطرًا واحدًا صوابًا ، ثم يُقذف به فـي هـذه الكلياتِ الثلاث ، فـذلك أقلّ ما يقال فيه إنّه من التهاون بحـق العلـم أو من الشّفقة المُهلكة ، ومن فعل فليس بأهل أن يؤتمن على العلم وتعلِيمـه . إن استرضاء الناسِ وطلاب التّوظيف في دولاب العمل الحكومي لا يعمـلُ لـه من أقام نصب عينيه أنّـه المسؤول عمّا استرعاه الله تعالى .

روى مسلم في كتاب «الإيمان» من صَحيحه بسنده عَـنْ مَعْقِـلِ بْـنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنه قَـالَ : سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ يَقُـولُ «مَـا مِـنْ أَمِـيرٍ يَلِـى أَمْـرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ»

وكل من تولّى عملاً فهو أمير فيه . أي آمرٌ بما يصلِحه فيه .

وهذا الحديث يجب أن يكون مكونًا من مكونات كل مسلمٍ ، وأن يُكتب في القلوب ، لعله يتذكر فيَخشى .

* * *

للشّيخ كما يجهر به كلُّ سِفرٍ من أسفارِه مِن العلـم بلسـان العربيـة ومنهـاج الإبانةِ والإفهام ، وأدبياتِ تلقيه ما جعله يقتعد مقعد الصّدارة ، فأعانَـه علـى أن يبصرَ لطيفَ المعاني في البيان لبصرِه بخصائصِ كلم العربيّة ومنهاجِ بناءِ صُورة المعنى ، ومسالك دَلالتها على مـا تحملُـه مـن المعـاني ، وبصـرِه بمقتضـياتِ الإبانة بهذه الصُّورة عن هذا المعنى في هذا السّياق . . . . .

علمُه بلسان العَربية لم يكن قطًّ علمُ الحاملِ المؤتمَن على وديعةٍ في عقلِه ، بلْ هُو علم الصَّانعِ ممّا علم ما يجبُ أن يكونُ .

اتخذَ الشيخ العلمَ بلسان العربية أداة لا غاية ، وكانت عنايته بالأداة من عِنايتِه بالغاية ، التزامًا بأصلٍ إسلاميّ يتمثـل في أن شـرف الغايـة يوجـب أن تكـون الأدوات والسبلُ إليها على قدرها شرفًا .

ومن ثَمَّ كان احتفاءُ الشَّيخ بالكلمةِ الشَّاعرة على نحْو لَم ألحظ عديله عند أقرانِه وأشياخه . ولا سيّما احتفاؤه بفقه الكلمةِ الشّاعرة فيما قبل عصر البعثة ، وفي عصرها ، وما قاربها . كانت له مخادناتٌ واسعةٌ عميقةٌ لهذه الكلمة . ومعالمُ حضور الوعي النّافذ السَّابغ بخصائصِ العربيّة من حيثُ هي ومن حيث حضورها في بيان الوحي قرآنًا وسنة ، في بيانِ الإبداعِ شعرًا ونثرًا جدّ عديدة ومتنوعة ، لا سبيلَ إلى استحصائها ، وهي مما لا تغيم على من نظرَ في هذا الكتاب وإن كان نظرًا عجلاً لزفرة حضورِ ذلك فيه .

وَأيُّ حديث أنت قارئ ما جاء بِه الشّيخ في شَرحه يكون بملكك أن تستخرج منه معالم العلوم التي شكلت عقلَه وذوقَه ولسانَه .

* * *